الياس خوري



رواية

مجمع الأسرار



دار الآداب

الياس خوري

مجمّع الأسرار

رواية

دار الآداب - بيروت

مجمّع الأسرار

الياس خوري/روائي لبناني

الطبعة الأولى عام 1994
الطبعة الثانية عام 2008
ISBN 978-9953-89-024-1

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

«إن كنتَ رأيت ما ذكرت، فقد رأيت عجباً، وإن كنتَ ما رأيتَه فقد وضعت أدباً».

(قول منسوب لهارون الرشيد في كلامه عن الشاعر ابن السري سهل بن خالد الخزرجي).

بدأت الحكاية هكذا.

في ذلك اليوم، وكان السادس من كانون الثاني ١٩٧٦، توفيت السيِّدة سارة نصّار عن عمر يناهز الثمانين عاماً. والموت كان متوقّعاً. وحده إبراهيم نصّار فوجئَ به. كان، وهو في الرابعة والخمسين، يقف كالمعتوه أمام جثّة عمّته، ويترنّح بالبكاء. مشى خلف النعش وهو يتداعى ويكاد يسقط. ربط الفوطة البيضاء على رأسه ومشى خلف جثّة عمّته، وجهه الأحمر يكاد ينفجر، والدموع لا تتوقّف.

ورث إبراهيم نصّار عمّته سارة عن أبيه يعقوب، الذي عاش مع شقيقته وابنه الوحيد بعد وفاة زوجته بمرض السرطان. كان يعقوب نصّار يملك دكاناً لبيع الخُضَر في بيروت، ويعيش وحيداً ومنعزلاً عن الناس في بيته القديم المليء بخيوط العنكبوت المنتشرة على جنبات سقفه العالي. كان هذا البيت، هو بيت إبراهيم نصّار الجدّ، الذي بناه عام ١٨٨٩، على تلّة منعزلة تشرف على نهر بيروت. يومها قال الناس إنَّ إبراهيم نصّار رجل مجنون، لأنّه اختار أن يعيش بين بنات آوى التي كانت تملأ المنطقة.

واستمرّت الحكاية ثلاثة أيّام.

في اليوم الثّالث مات إبراهيم نصّار، واكتُشفت جثّته بعد ثلاثة أيّام على وفاته، حين أتت نورما عبد المسيح إلى البيت وقرعت طويلاً، وعندما لم يفتح لها أحد، دفعت الباب العتيق فانفتح، وخرجت

رائحة الموت. دخلت غرفة النوم، حيث السرير العتيق المصنوع من خشب الجوز، فرأته ممدّداً. كان عارياً ونائماً على جنبه الأيمن، ووجهه بقعة زرقاء منتفخة. ابتعدت عنه ووقفت أمام خزانة الثياب الخشبيّة العريضة وبدأت تولول. فتحت الخزانة كي تختبئ في داخلها، لا من أجل السرقة كما اتّهمها حنّا السلمان المالح. جاء حنّا ومعه مجموعة من رجال الحيّ وأسكتوها. جلبوا طبيباً عاين الجثّة، وتمّ دفنها بسرعة في مقابر العائلة.

وفي اليوم الثاني، وقفت نورما وسط الشارع الفارغ. كانت تحلش شعرها أمام الفضوليّين القلائل الذين كانوا يتوقّفون أمامها قليلاً ويهزّون بأكتافهم، قبل أن يتابعوا سيرهم إلى بيوتهم حاملين ما تيسّر من الخبز والمعلّبات والخُضَر الذّابلة. ونورما تصرخ بأنّها ضاعت لأنّ الرّجل فضّ بكارتها ومات قبل أن يفي بوعده ويتزوّجها.

وفي اليوم العاشر انقطعت أخبار نورما.

آخر من شاهدها، كان حنّا السلمان. اقترب الرّجل الخمسينيّ منها كي يتأكّد أنّها هي. فلقد تغيّرت نورما كثيراً. كانت في الخامسة والخمسين، معتدلة القامة، سمراء، ثدياها كبيران ومتهدّلان، شعرها أسود طويل، عيناها صغيرتان، ويداها مليئتان بالعروق.

قال لها حنّا، عندما ضاجعها للمرّة الأولى منذ ثلاثين سنة، إنّه لا يحبّها. يومها خرجت من السّرير الذي تركت على شرشفه الأبيض بقعة من الدم، ونظرت إلى الرجل بعينين خائفتين، وبدأ العرق يتساقط من جسمها العاري كأنها تتحمّم. لبست ثيابها بسرعة وخرجت. وبعد سبعة أيّام، بحث عنها ليضاجعها من جديد. انتظرها أمام مدرسة الرّاهبات، رأته فابتسمت، وتابعت سيرها دون أن تلتفت

إليه. مشى إلى جانبها وهو يتمتم بكلمات الاعتذار والحبّ والرجاء. انعطف في الزّقاق الموحل إلى بيته، فانعطفت خلفه ودخلت. ومن يومها نشأت علاقة خاصّة بين نورما عبد المسيح وحنّا السلمان. لكن علاقتها بإبراهيم نصّار لم تنقطع. والحكايتان طويلتان. راجت شائعات في حيّ «الفرنيني» أنَّ حنّا السّلمان قتل إبراهيم نصّار انتقاماً لشرف نورما المهدور. شائعات أخرى قالت إنَّ الحقيقة ليست الشرف المهدور، بل الذهب المخبّأ في الغرفة، وقد أراد حنّا الاستيلاء عليه بالاتفاق مع نورما.

يومها، أي في اليوم الثامن، دعاها حنّا إلى دكانه، وقال لها تلك الكلمات القديمة التي كان يقولها قبل أن يضاجعها، فلم تكترث. سمعت الشّفقة في عينيه ولم تسمع الرّغبة. نظرت إليه بعينين زائغتين، وتابعت سيرها إلى حيث لا يعلم أحد.

والآن، وقد اكتملت الحكاية بموت أبطالها، يحقّ للناس أن يعرفوا السرّ. وسرّ نورما الذي ذهب معها إلى حيث دهبت، يطفو اليوم، وكأنّه يعيد تشكيل صورة المرأة في حكايتها بين رجلين. كانت تبكي مع إبراهيم في السّرير، وتبكي في سرير حنّا. إبراهيم كان لطيفاً وحزيناً حين ينام معها، وحنّا كان متوحّشاً وصلباً وبذيئاً. لكنّها كانت تبكي مع الاثنين وتحلم بالزواج من أحدهما. مرّة أسمت حنّا إبراهيم، كان ذلك خطأً غير مقصود، فتحوّل اللقاء إلى حفلة من التوحّش لم تنسها الفتاة. قالت إبراهيم وهي تقصد حنّا، فانتفض حنّا وبدأ يضربها. نطحها على رأسها، نزع حزامه الجلديّ وضربها حتّى صارت كومة من الأنين والخوف، ثمّ ضاجعها بنهم لم تعرفه في حياتها. كان يدخلها ويشتم، وعيناه تقفزان من وجهه، ونورما

مستسلمة بصمت، تعضّ على شفتها السّفلى كي لا يخرج من فمها أنين اللّذّة.

لم تخبر نورما سرّها لأحد.

أوحت لحنّا أنّه فضّ بكارتها، وأوحت لإبراهيم أنّه هو من فعل ذلك، ونشأت بين الرّجلين علاقة هي مزيج من العداء والتواطؤ. لم تكن نورما سرّ أحدهما. كانت سرّ نفسها. والسرّ كما قالت العرب من الأسرار تُكتم، والسرّ ما أخفيت، وأسرَّ الشيء كتمهُ وأظهره وهو من الأضداد. والسرّ هو الزّنا والجماع، كما قال أبو الهيثم، والسريّة الجارية المتّخذة للملك والجماع. ويقال فلان في سرّ قومه، أي في أفضل موقع فيه، والأسارير هي الخطوط التي على الجبهة.

السرّ هو الشيء ونقيضه، المخفيّ والمعلن. فهو لا يكون مخفيّاً على البعض، إلاّ لأنّه معلن للبعض، ولا يتحوّل إلى حكاية إلاّ حين يختفي البعضان، عندها لا يعود السرّ سراً بل يصبح لغزاً، واللّغز بحاجة إلى حلّ.

نحن أمام لغز لا حلَّ له.

لم يتساءل أحد بعد موت إبراهيم نصّار عنه أو عن عشيقته المسكينة. وحنّا السّلمان عاد إلى دكّانه يصلح الأحذية، ويضع المسامير الصغيرة في فمه، ويدخل في سبات الصّمت.

سرّ إبراهيم نصّار أنّه ورث حياته الغريبة وعاشها.

كان غريباً في كلّ شيء، يعيش وحيداً مع عمّته التي لم يعرفها سوى كهلة تئنّ من أوجاع مفاصلها وخوفها من الموت. منذ البداية ورث إبراهيم نصّار الموت ودكّان الخُضَر، ولم تكن به رغبة إلى

شيء. حتّى الجنس كان يمارسه كواجب. وعندما كانت نورما تطلب منه أن يتزوّجها، كان ينظر إليها بعينين فارغتين كأنّه يراها للمرّة الأولى. يطلب منها أن تخفض صوتها كي لا تسمعها عمّته سارة التي تسهر في الغرفة الثّانية على ضوء قنديل الزيت، وتقضي اللّيل وهي تمشي وتشحط قدميها على بلاط غرفتها، وتتنهّد بكلمات غير مفهومة. يطلب إبراهيم من نورما أن تسكت، ويعدها بالزّواج، لكنّه لم يتزوّجها. كان يعلم عن علاقتها بحنّا السّلمان. وكان إبراهيم هو الإنسان الوحيد الذي حزن عندما لم يشنق حنّا وظهرت براءته. في ذلك اليوم من عام ١٩٤٨ وعد نورما بالزّواج، قال لها إنّهما سيذهبان في صباح الغد للتفرّج على شنق حنّا المسكين، ثمّ يتزوّجها. لكن بَدَلَ حنّا شُنق رجلان، المجرم الحقيقيّ ومجرم السجن. أمّا حنّا فقد استقبل في الحيّ بوصفه بطلاً. صحيح أنّه خرج من السجن محطّماً ومكسوراً، واختفى من الحيّ، ليشتغل تاجراً كما قال، لكنّه صار الإسكافي الضحيّة الذي يحترمه الجميع، ويحمدون الله على براءته من تلك التّهمة المخيفة التي التصقت به.

بدأت الحكاية هكذا.

في ذلك اليوم الممطّر من أيام كانون الثاني ١٩٧٦، استيقظ حنّا السلمان باكراً. كان قد حلم أنَّ لسانه تحوّل إلى قطعة من الجلد تشبّه اللسان الموجود داخل الحذاء. كان ما يزعجه في إصلاح الأحذية هو أنَّ الحذاء يهترئ ويذوب ويبقى لسانه. ولسان الحذاء قطعة جلديّة لا معنى لها سوى إقامة عازل بين شريط الحذاء والقدم؛ يهترئ الحذاء ويبقى اللسان. حلم حنّا، في تلك الليلة، بلسانه وكأنّه لسان جلديّ لحذاء بنّيّ مهترئ. كان اللسان البنّيّ يتدلّى من فمه كأنّه لسان كلب، وهو يقف تحت شجرة الزنزلخت، في حديقة بيته، والدنيا تمطر وحلاً.

استيقظ حنّا السلمان واقفاً. كان قلبه ينبض بضربات سريعة، وصوت بكاء بعيد يخترق مطر بيروت الذي يشبه الحبال. كان ذلك يوم الأحد ١٢ كانون الثاني ١٩٧٦، وكان حنّا قد شرب قنينة عرق كاملة قبل أن ينام. لا يذكر كيف دخل إلى سريره. في التّاسعة صباحاً استيقظ ورائحة الوحل تملأ أنفه، ولسانه ناشف كأنّه قطعة جلديّة في حذاء. هرول خارج الغرفة فلم يجد أحداً في البيت. الزوجة ذهبت مع ابنته لحضور القدّاس في الكنيسة، وهو يحتاج إلى ركوة قهوة تفتح رأسه، والصّراخ يطنّ في أذنيه كأنّه نواح. المطر لم يتوقّف عن الهطول طوال الليل، ورائحة التراب تفوح، والبرد يخترق العظام. لبس حنّا ثيابه على عجل وركض مع الراكضين باتّجاه مصدر

الصوت. كان يأتي من الشّارع المحاذي الذي يقع خلف محطّة البنزين التي يملكها الحاج عواد. فكَّر حنّا بكلِّ شيء إلاّ بآل نصّار، ليكتشف نفسه وقد وصل إلى المنزل، والناس تتراكض حوله. دخل مع الداخلين ليجد نورما واقفة داخل الخزانة المفتوحة والعرق يغطيها. يذكر حنّا أنّه رآها نصف عارية، لكن لا أحد يؤكّد ذلك. رأى نورما ورأى رجالاً يضعون شرشفاً أبيض فوق جثّة إبراهيم نصّار المنتفخة. لم يفكِّر حنّا إلاّ بالدّفن وإجراءاته، حتّى إنّه لم يلاحظ اللون الأزرق الذي غطّى وجه إبراهيم المنتفخ، ولم يشمّ الرائحة. كان أنفه مايزال عابقاً برائحة المنام الذي رآه، ورأسه يطنّ بالوجع والرغبة في القهوة التركيّة التي لم يشربها في بيته ذلك الصباح. كلّ الإجراءات انتهت بسرعة. الدكتور سعيد الحصري كتب تقريره دون أن يعاين الجثّة. حنّا ألبس إبراهيم قمبازه الأبيض، لأنَّ ثيابه لم تعد صالحة بسبب انتفاخ الجثّة. جلبوا تابوتاً كبيراً ووضعوا فيه الميت دون غسله، وجرى الاتصال بالخوري إيليا الحايك الذي وعد بملاقاتهم في الكنيسة. كلّ شيء انتهى بسرعة وبقيت عقدتان، إغلاق التابوت والمقبرة. المقبرة كانت مشكلة. حنّا دبّر أمر التابوت، ضغط الغطاء على البطن المنتفخ وأغلقه بالمسامير. كانت نورما تصرخ كلّما أدخل حنّا مسماراً في الغطاء ودقّه بقدومه. قامت زوجة حنّا وأخرجت نورما من الغرفة، ولم يرها حنّا بعد ذلك إلاّ في ذلك اليوم الثامن. إغلاق التابوت بالمسامير خلق مشكلة أمام المقبرة. فالخوري إيليا الحايك أصرَّ على تطبيق جميع طقوس الدّفن. غضّ النظر عن كون آل نصّار ليسوا من طائفة الروم الأرثوذكس، وقَبِل أن يدفن إبراهيم في مقبرة طائفة لا ينتمي إليها، لكنّه لم يوافق على تغيير الطقوس الدينيّة. والحقيقة أنّه لا فضل

للخوري إيليا في هذا، فلقد اختلطت المقابر خلال الحرب الأهليّة بشكل غريب، إذ كان أبناء الطوائف المتقاتلة يجدون أنفسهم في مقابر مشتركة رغماً عن إرادتهم. «القبر وحّد الطوائف اللبنانيّة»، كان الخوري يقول وهو يدفن أبناء الطوائف المختلفة في مقبرته. أمّا أن تصل الأمور إلى تغيير الطقوس، فهذا ما لا يرضى به. أصرَّ الكاهن على فتح غطاء التّابوت كي يرشّ التّراب على جثّة الميت، ولم يكن الأمر ممكناً. فالتابوت أغلق بعد جهد كبير، وضغطٍ قام به أربعة رجال، كي يتسنّى لحنّا إقفاله بالمسامير.

الخوري رفض أن يدبّرها.

«دبّرها يا أبونا دخيل عرضك»، قال حنّا، والنّاس مستعجلون، والخوري لا يردّ.

«افتحوه»، أمر الكاهن.

«ما بينفتح يا محترم»، جاوبه صموئيل نصّار.

«افتحوه، وإلاّ، ما مندفن»، قال الخوري.

«رح ندفن من دون البركة»، جاوب حنّا.

وحصل هرج ومرج، وأخيراً رضخ الخوري بعد أن دسّ حنّا مئة ليرة في جيب جبّته السّوداء. واكتفى بأن يرشّ التراب على الغطاء، وهو ينظر إلى المسألة بريبة وخوف.

أمّا المقبرة، فتلك حكاية.

كيف يمكن توضيح هذه المسألة البسيطة؟ فآل نصّار يملكون مقبرة خاصّة بهم في بيروت، بالإضافة إلى مقبرتهم الأصليّة في قريتهم «عين كسرين». يعقوب والد إبراهيم اشترى قطعة أرض في مقابر الروم الكاثوليك الكائنة على «طريق الشام»، وهي الطريق التي

كانت تفصل متصرفيّة جبل لبنان عن ولاية بيروت في القرن التاسع عشر، وتحوّلت إلى جزء من الخطّ الأخضر الذي فصل بيروت عن بيروت خلال الحرب الأهليّة. مقبرة آل نصّار كانت في كانون الثاني ١٩٧٦ غير صالحة للاستعمال، لأنّها خطّ قتالي، ويحتلّها المسلّحون.

المسألة أنَّ إبراهيم نصّار وجد نفسه دون قبر. لقد استطاع أن يدفن عمّته سارة في مقبرة الخوري إيليا الحايك، لأنّه استعار مقبرة أخواله من آل الجاهل. فالعمّة دُفنت في مقابر آل الجاهل، أي عائلة والدة إبراهيم التي ماتت من زمان. يومها، روى إبراهيم وهو يتنهنه بالبكاء أنّه ذهب إلى إخواله، واستعار من كبيرهم الحاج نقولا مفتاح المقبرة.

بعد موت إبراهيم، وجد حنّا نفسه في مأزق. فهو يعرف أنّ الأخوال غادروا بيروت هرباً من الحرب إلى منطقة «كسروان»، لكنّه لا يعلم أين يقيمون. وكان عليه أن يختار بين رمي إبراهيم في إحدى آبار المقابر الجماعيّة، أو كسر قفل مقبرة آل الجاهل، وهذا ما فعله. جاء قبل الدّفن بصحبة شقيقه الأصغر صموئيل وكسرا قفل المقبرة، وهذا ما سمح للخوري إيليا بأن يدفن إبراهيم في مقبرة إحدى عائلات بيروت العريقة.

كيف مات إبراهيم نصّار، ولماذا كانت نورما عبد المسيح تقف داخل الخزانة؟ هل كانت تختبئ أم كانت تسرق؟ ومن أدخلها البيت؟

حنّا السلمان المالح لم يجاوب على هذه الأسئلة، كان مشغولاً بأخبار الحرب، وببكاء زوجته لأنّ ابنها يريد أن يهاجر إلى كندا،

وبالخوف الدّائم من أن يبتلع المسامير الصّغيرة التي يضعها في فمه، وهو يصلح أحذية النّاس.

هنا وسط الأحذية التي تتكوّم فوق بعضها، وتكاد لا تترك مكاناً للإسكافي كي يجلس وراء طاولته ويعمل، هنا، قضى حنّا السّلمان أيّامه الأخيرة دون أن يخرج للبحث عن السرّ الذي كان مرسوماً على جبين إبراهيم نصّار، وهو ينام منتفخاً باللون الأزرق، وخزانته تهتزّ بامرأة باكية، والعرق الذي يشبه الماء يتصبّب منها.

بين أكوام الأحذية ترك حنّا السلمان روحه تنوس وتنطفئ، وترك الحكاية مختبئة في مقابر آل نصّار الأصليّة الموجودة في قريتهم «عين كسرين»، التي لم يزرها أحد منذ زمن طويل، ولم يكشف عنها غطاء الأساور الذّهبيّة التي ابتلعها التّراب.

بدأت الحكاية هكذا.

يذكر إبراهيم نصّار الأمور بشكل غامض. كان في العاشرة، وكانت العائلة تستعدّ للسفر إلى كولومبيا. في بوغوتا، سوف يجتمع الشمل أخيراً. وسمع والده يخبر عمّته أنَّهم دبّروا له ابنة عمّه كي يتزوّجها ويرتاح. ذاكرة إبراهيم نصّار عن تلك الأيام مشوّشة. قال لنورما عندما وعدها بالزّواج، إنّه يذكر نقاطاً بيضاء على شاشة عينيه، رسالة غامضة، صراخ العمّة، انهيار أحلام الهجرة والزواج وتأسيس حياة جديدة.

«أبي كان حكيما»، قال لزوجته المحتملة. «لم يبع غير نصف الأراضي التي تملكها العائلة في القرية؛ قال لسارة إنّه سيبيع كلّ شيء بعد أن يسافر، من يعرف ماذا ينتظره هناك».

أمسكت العمّة الرسالة وبدأت تندب.

كان يعقوب خارج المنزل. يذكر إبراهيم الشمس التي تحرق المدينة. الشمس في كلِّ مكان، وهو يلعب بالماء. لم يكن إبراهيم يلعب إلاّ بالماء. يقضي ساعات طويلة أمام البرميل في الحديقة، واضعاً يديه في الماء حتى تتقشّرا.

كان الماء وكانت شمس آب، حين سمع نحيب العمّة.

«مات يعقوب»، صرخت، وجلست على الأرض.

ركض إبراهيم، ركض الجيران، أحاطوا بالمرأة الجالسة على الأرض، وشاركوها البكاء. لم يسألها أحد عن الجثّة. دخل الرّجال

غرف البيت ولم يجدوا شيئاً. تراكض الرّجال داخل البيت وعلامة الأسى مرتسمة على وجوههم. «وين الميت؟» صرخ الحاج أبو شفيق.

«هون هون»، جاوبت المرأة، ولوّحت بالمكتوب.

خطف الحاج أبو شفيق الرّسالة من يدها، أبعد الورقة عن عينيه كي يميّز الحروف، وحاول أن يقرأ بصوت عالٍ، بعد أن تنحنح طويلاً. عندها رأى الناس يعقوب نصّار قادماً بطربوشه الأحمر، وانحناءة كتفه اليمنى.

«باسم الصليب العلي العظيم»، صرخت سارة حين رأت أخاها، وازداد نحيبها، ولم تستطع أن تنهض عن الأرض.

أخذ يعقوب الرسالة من يد الحاج أبو شفيق، وقرأها بعينيه، ثمّ قال لسارة «قومي فكّي الأغراض، فرط السفر». ونظر إلى الناس المتجمّعين حوله كأنّه لم يرهم حين دخل البيت.

«العوض بسلامتكم، هيدا ابن عمي يعقوب، اسمه على اسمي، انقتل بكولومبيا، التّعازي بعدين».

جلس يعقوب على المقعد، وبدأ النّاس يغادرون دون أن يسلّموا، خلع طربوشه ووضعه على ركبته اليمنى، وحنى رأسه بين يديه.

قال إبراهيم لنورما إنّه يذكر تلك الانحناءة، وكيف كان الطربوش يتراقص على ركبة والده، وأنّه لم يفهم شيئاً. يومها بكى إبراهيم دون أن يعرف لماذا. قال لنورما، إنّه لا يفهم معنى البكاء. وكانت نورما تنام في السّرير عارية، تضع يديها على وجهها. قال لها إنّ البكاء حالة لا تفسير لها، «فأنا لم أبكِ لأنّني فهمت أنّ أبي مات، بكيت لأنّ عمّتي بكت، وعمّتي لم تبكِ على أبي، بكت على حالها،

لأنّها كانت موعودة بالسّفر والزّواج، والنّساء اللواتي بكين في البيت، بكين لبكاء عمّتي، وقبل أن يتأكّدن من موت أبي الذي لم يمت يومها. لا أعرف لماذا البكاء، الله يخلّيكي توقّفي».

أزاحت يديها الصّغيرتين عن عينيها، وقالت إنّها تبكي لأنّها تحبّه، وتعلم أنّه لا يحبّها، وقالت الكلام نفسه تقريباً لحنّا. كانت تبكي وهي تخضع لطقوس العنف عند حنّا، وتصرخ أنّها تحبّه. وبعد زواجه من ابنة خالته تابعت علاقتها الجنسيّة به في دكّانه الصّغير. جاءت بعد الزّواج بأسبوعين وكانت السّادسة مساء، الشّارع ينحدر إلى عتمة المساء. دخلت الدّكان دون أن تقرع الباب. كان حنّا وحده، ويستعدّ لإقفال الدّكّان والعودة إلى منزله. دخلت ولم تتكلّم، نظرت إليه بطرف عينيها وباستعلاء. وبدأت تخلع ملابسها بهدوء، والرّجل لا يصدّق عينيه. كان في نظرته شيء من التقزّز الذي ظهر على شفتيه اللّتين الْتَوَتا إلى الأعلى. بعد أن خلعت صدريّتها، انقلب وجهه، وعادت إلى عينيه تلك العواصف التي كانت تجعل ظهر نورما يرتجف. كان عمودها الفقريّ يترنّح من الأعلى إلى الأسفل حين يقترب منها حنّا بعينيه الحمراوين الملتهبتين.

في ذلك اليوم التهبت عيناه حين رأى ثدييها وقد خرجا من الصّدرية، وكأنّهما قفزا من داخل القماش الأبيض. هجم عليها، لم يتركها تتابع خلع ثيابها. هجم وأسندها إلى الحائط وأخذها واقفاً. كان حنّا سريعاً جدّاً في ذلك اليوم، وصل قبل أن يبدأ، كأنّه عاد مراهقاً بعد زواجه. نظر إليها كأنّه يستعجلها الخروج من الدّكان. بدأت نورما تلمّ قميصها عن الأرض وتلبس، وحنّا ينظر إليها

بلامبالاة. لبست قميصها وسألته عن المدام.

«كيف المدام، انشالله تكون مبسوط معها».

همهم ولم يردّ.

وعادت الحكاية إلى الحكاية. تحلم بالزّواج من إبراهيم، وتنام مع حنّا بين وقت وآخر. حنّا يشتهيها بعينيه الملتهبتين، وحين ينتهي يفترسهما البياض، ويطلب منها بإشارة من حاجبيه أن تغادر الدّكّان.

قالت سارة لإبراهيم إنّهم يحبّون الخادمات.

«أنتم، عائلة نصّار، العمى، أبوك وجدّك ويمكن جدّ جدّك، روح تزوّج وخلّصني من هالمناظر».

إبراهيم لم يكن يحبّ الخادمات كما تعتقد عمّته. كان يحبّ ماري بجاني لكنّه لم يتزوّجها. وكانت ماري ابنة المصارع نجيب بجاني الّذي ملأت صوره حيطان المدينة. لم يكن إبراهيم يحبّ المصارعة الحرّة، وكان يعتقد أنّها رياضة متوحشّة لا تليق بأحفاد سيّدنا آدم. والمصارع نجيب بصدره العاري وفمه المفتوح وعضلاته المفتولة لا علاقة له بقصّة الحبّ هذه سوى أنّه كان سبباً إضافيّاً لخوف إبراهيم من ماري. أحبّها وهي في السّادسة عشرة وكان في الرّابعة والعشرين. حين يراها داخل الدّكّان تجمد أطرافه من الخوف ويصبح عاجزاً عن الكلام. دكّان نصّار لبيع الخضروات كان يبشّر بمستقبل كبير، فقد خطرت للشّاب فكرة تحويل الدّكّان إلى «سوبرماركت» صغير، يومها لم يكن «السوبرماركت» على الموضة. اشترى إبراهيم برّاداً كبيراً، وبدأ يبيع الأجبان والألبان بالإضافة إلى الخُضَر، وصار «سوبرماركت» نصّار حديث الحيّ. وقال الكريم خذ، وبدأت الأموال تتدفّق. كان يعقوب يراقب نجاح ابنه بعينيه

نصف المغمضتين بسبب المياه الزّرقاء، ويتمتم بشكر الله الذي لطف أخيراً بهذه العائلة البائسة.

العائلة البائسة هي الحكاية، أمّا ماري بجاني وقصّة الحبّ فلم تكن أكثر من حلم راود رأس الفتى. كانت تشتري وكان يبيعها بنصف السّعر وتسحره. مرّة واحدة، وكان «السوبرماركت» خالياً من الزّبائن، استجمع كلّ شجاعته ودعاها إلى السّينما لحضور فيلم لأسمهان. نظرت إليه بعينين لامباليتين كأنّها لم تسمع دعوته، لم يفهم إبراهيم هل وافقت أم رفضت، لكنّه تلعثم ولم يعد قادراً على إكمال كلامه. أعطاها كيس التين الأبيض ولم ينتظر الجواب، أدار لها ظهره كأنّه يريد ترتيب رفوف الدّكّان، وغادرت. لم تتوقّف ماري عن المجيء إلى الدكّان بعد هذه الحادثة، لكن إبراهيم أصيب بخوف كبير. قالت له عمّته سارة إنَّ الفتاة مخطوبة لمصارع هو صديق والدها، وأنّها تخاف عليه أن يموت كما مات ابن عمّه في كولومبيا.

«إيّاك ثم إيّاك، أنا عم قلّك».

«بس يا عمّتي خلّلي بيّي يروح ويسأل»، جاوبها إبراهيم.

يطقطق فم العمّة بالوجبة الواسعة الّتي تضعها بدل أسنانها، وتقول إنّه حمار ولا يفهم.

«أنا بخطب لك، شو رأيك ببنت التّبشراني».

«بس أنا بحب ماري».

«مين ماري؟».

«ماري بنت نجيب بجاني».

«أوعا، ما تجيب السّيرة، أنا بخاف عليك، سمعت إنّه بيّها

بيقتل، مرّة قتل واحد وهرب، وبعدين طلّعوه براءة، لأنّها كانت جريمة دفاع عن الشّرف، هيك قال المحامي، قال شرف قال».

وإبراهيم ينتظر ماري في الدّكان ويحبّ نورما.

إبراهيم سيقول إنّه لا يحبّ نورما، وهو يكذب. المسألة مع نورما لم تكن مجرّد علاقة جنسيّة فقط، كان يراها وكأنّها ماري. وحين يجلس في دكّانه منتظراً، تختلط عليه صورة الفتاتين، وكأنّهما تتداخلان.

جاءت ماري ودعته إلى عرسها. قالت إنّها ستتزوّج بعد أسبوع، وأنَّ خطيبها محاسب في محلّات «أوروزوي باك» لبيع الفضّيّات. أعطته بطاقة الدّعوة وقفت تتأمّله وهو يقرأها، وخرج صوتها وكأنّه من مكان بعيد.

«بس ليش عملت هيك؟»

«شو عملت»، سألها.

«ما شي، ما شي»، جاوبت ومضت.

عندما حضر ملاك الموت إلى يعقوب نصّار، استدعى ابنه إبراهيم إلى سريره وأخبره السرّ. والسرّ لم يكن حكاية العائلة التي يعرفها إبراهيم من كثرة ما رواها والده. السرّ كان الناولون الذي أخفاه يعقوب عن شقيقته. كان الأب مصاباً بحمّى شديدة بسبب نزلة صدريّة جعلته عاجزاً عن التنفّس. استدعى ابنه إلى سريره وهمس له أين خبّأ اللّيرات الذّهبيّة العثمانيّة التي هي كلّ الثّروة. سارة كانت تعرف أنّ شقيقها خبّأ المئتين والخمسين ليرة ذهبيّة في البيت. وكانت تملك نصفها، وافقت على بيع الأرض في «عين كسرين» من أجل السفر، ولمّا جاءت تلك الرّسالة التي أعلنت موت يعقوب الآخر،

وقرّر الأخ إلغاء مشروع الهجرة، لم يقل لأخته أين خبّأ المال. مرّة واحدة سألته فأجابها أنّه في مكان أمين. كانت تريد حصّتها من أجل المستقبل، فهي لا تخاف مادام شقيقها حيّاً لأنّها تعلم أنّه يحبّها، لكنّها كانت تخاف هذا «الولد الأهبل» كما كانت تسمّيه، عندما سيتحكّم بها وبحياتها بعد وفاة يعقوب.

«الولد الأبله» حفظ السرّ في قلبه ولم يبح به لعمّته، ولم يتكلّم في هذا الموضوع أمام أحد. مرّة واحدة تكلّم عن اللّيرات الذّهبيّة أمام حنّا السلمان. وكانا يشربان العرق بعد خروج حنّا من السّجن. أخبره عن الثروة وأنّه يفكّر في توسيع «السّوبرماركت»، فنصحه حنّا بالانتظار لأنّ الأيّام متقلّبة وهناك خطر الحرب. وفعلاً حصلت الحرب الأهليّة عام ١٩٥٨، ورجع لبنان إلى تلك الأجواء التي حفظها إبراهيم من حكايات أبيه عن أصل العائلة.

نورما لم تعرف السّرّ. فهي كانت تحتفظ بسرّها لنفسها. كانت تحبّ إبراهيم وتخاف حنّا. وصارت تعشق حنّا وتخاف أن يتركها إبراهيم. كانت تحمل نقطتي دم، نقطة أهرقتها في سرير إبراهيم، ونقطة في سرير حنّا. وعندما ضربها حنّا ليعرف الحقيقة، ركعت وقبّلت رجليه وقالت إنّها لا تذكر. وبعد زمن طويل ظهرت الحقيقة بعد موت إبراهيم نصّار. وقفت المرأة في الطّريق كالمعتوهة وهي تقول بأنّها فقدت شرفها، وأنّ الرّجل وعدها بالزّواج ومات قبل أن ينفّذ وعده. وتطوّرت الحكاية حين قامت نورما باحتلال بيت نصّار مدّعية أنّها زوجة المرحوم، والبقيّة يعرفها جميع سكّان «حيّ الفرنيني»، حين جاء رجل من آل الجاهل، هو ابن خال المتوفى، وطرد نورما من البيت بمساعدة مجموعة من المسلّحين. وغيّر

الأقفال ومضى. بعدها بدأت طقوس العرس الذي أقامته نورما في الشّارع والنّاس تتفرّج عليها، وتنتهي الطّقوس ببكاء المرأة، وهي تركض وحيدة نحو منزلها نصف المهدّم.

لم يكن إبراهيم يحبّ الخادمات، كما تدّعي عمّته.

أحبّ نورما لا لأنّها خادمة، بل لأنّه كان يراها تتلألأ. كانت نورما تخرج من الحمّام شبه عارية، ونقاط الماء تلتمع على كتفيها السمراوين. صحيح أنّه ورثها، كأنّها كانت جزءاً من العائلة، لكنّ نقاط الماء على الكتفين كانت بداية الحبّ. كان ينحني على كتفيها ويشرب نقاط الماء، وهي تضحك هاربة أو مدّعية الهرب.

كان إبراهيم يشعر بالوحدة والغربة في هذا البيت العتيق الذي يعيش فيه. وهناك وجد نورما، وكانت جزءاً من إرثه العائلي. والإرث في هذه العائلة اللّعينة يقود إلى الموت. كان إبراهيم يعرف الحكاية بشكل غامض. فعائلة نصّار ليست عائلة نصّار، إنّها عائلة عطوي، ونصّار هو لقب التصق بها في «عين كسرين». أمّا عائلة عطوي فهي من «إزرع» في «حوران»، ومن هناك نزحت العائلة إلى قرية «قانا» في جنوب لبنان. نستطيع بالطبع أن نشكّك في صحّة هذه الحكاية، كما فعل يعقوب وابنه إبراهيم. فجميع العائلات المسيحيّة في لبنان تدَّعي أنّ أصولها تعود إلى «إزرع» في بلاد «حوران»، وأنّها تنتمي إلى بني غسّان، وهم من ملوك العرب. آل عطوي يعتقدون أنّهم غساسنة، وأنّهم نزحوا إلى «قانا» على مراحل متعدّدة تمتدّ حوالي القرنين من الزمن. النزوح الأخير كان نزوح الفرع الذي سيسمّى فرع نصّار، وقد نزح هذا الفرع في أواخر القرن الثّامن عشر. وكان الجدّ الأكبر نصّار بن عيسى بن غسّان، قد قرّر

النّزوح من «إزرع» بسبب جريمة قتل. دائماً يكون النّزوح بسبب جريمة قتل، ولكن هذه المرّة كان الضحيّة هو النّازح لا الجاني. يروي يعقوب، على ذمّة جدّه، أنّ الجدّ الأكبر نزح بعد أن هاجمهم بدو الجولان، وقتلوا منهم ثلاثة إخوة وبقي الرّابع حيّاً. ساق نصّار أولاده وطرشه في رحلة طويلة إلى قرية «قانا»، كي يلتجئ إلى أبناء عمومته فيها. وفي تلك القرية الجنوبيّة التي تسمّى في الإنجيل «قانا الجليل»، حيث صنع السيّد المسيح عليه السّلام أعجوبته الأولى محوّلاً الماء خمراً، رأى نصّار بن عيسى بن غسّان العطوي، ما لا يمكن تصديقه، واكتشف أنَّ بني العطوي ما عادوا كما كانوا. وصل إلى القرية الجنوبيّة مرهقاً وعطشانَ، وفي نفسه شوق إلى الخلاص والأمان، ليكتشف المآذن تغطّي سماءها، والنّساء السّمراوات في شوارعها. وقف الشيخ الكبير محاطاً بأولاده حائراً لا يعلم ماذا يفعل. فـ«قانا» قرية مسيحيّة، لأنَّ عائلة واحدة تسكنها هي عائلة عطوي الغسّانيّة القادمة من «إزرع»، ونساء العطوي مشهورات ببياض بشرتهنّ. سأل هل هذه «قانا»، فأجابه رجل أعمى يقف في مدخل القرية أنّها «قانا»، وقاده إلى شيخ القرية، وهناك سمع نصّار كلاماً لم تصدّقه أذناه.

يروي يعقوب أن الجدّ الكبير سمع بأنّ العائلة تحوّلت إلى الإسلام منذ حوالي خمسين سنة، وأنّ شيخ القرية دعا الجدّ إلى اعتناق الإسلام. نصّار بن عيسى رفض، حمل مضاربه ورحل، وحطّت به الدّنيا في قرية «عين كسرين»، حيث تحوّل إلى فلّاح فقير، بعد أن قام مقاطعجي النّاحية، وكان من آل نكد كما يُقال، بالاستيلاء على خيوله وغنمه وبقراته، وحوّله هو وأولاده الثمانية إلى مرابعين يعتنون

بزراعة التّوت وشرانق الحرير، ويزرعون البصل والفجل. أمّا لماذا تحوّلت العائلة في «قانا» إلى الإسلام، فتلك حكاية تستحقّ أن تُروى.

قال يعقوب، وهو ينفخ النّارجيلة أمام مصطبة بيته، ويتأفّف من حرّ آب، ويطلب من شقيقته أن ترشّ الماء في الحديقة، قال إنّ الجدّ عندما وصل إلى قانا استقبل كأخ وأكثر. ذبحوا له الذّبائح، وأقاموا حلقات الدّبكة احتفاء بابن العائلة القادم من «حوران»، وبقي الأكل والشّرب على عادة العرب ثلاثة أيّام متواصلة. وفي اليوم الرّابع، روى نصّار حكايته، وكيف قُتل إخوته الثلاثة وسُبيت نساؤهم واختُطف أولادهم، في غزوة قام بها «عرب الهيب» على بلادهم، وكيف قرّر اللّجوء إلى «قانا».

العطوي الكبير رحّب بابن عمّه الهارب، ووعده بأرضٍ يبني عليها بيوتاً له ولأولاده، لكنّه طلب منه الدّخول في الإسلام. قال إنّ المسألة تحوّلت اليوم إلى قناعة ولم تعد مجرّد تقيّة، «فنحن»، قال العطوي «لا نخاف إلاّ الله سبحانه وتعالى، لكن قلنا كفى، أراضينا تتعرّض للغزو ثلاث مرّات في السّنة من المتاولة المقيمين في المناطق المحيطة بنا. وبعد هذا الله واحد، فقرّرنا الدّخول في الإسلام. كلّنا أسلمنا، والآن بدل أن تُغزى قريتنا، نحن نغزو ونجلب الغنائم، وفي النّهاية يا ابن عمّي الله واحد، وأنا قلت للعجائز اللّواتي مازلن يرسمن إشارة الصّليب بحكم العادة أنّه كفى. كلّ واحدة سترفع يدها سأكسرها. ولم يتغيّر علينا شيء، حتّى الخمر نشربها سرّاً».

لم يعرف الجدّ الكبير ماذا يقول، وشعر أنّ كلّ شيء اسودّ في

عينيه- ربّما هو مثلي، قال يعقوب، كان مصاباً بالمياه الزّرقاء، فأعتقد أنّ هذا الأزرق الذي يراه، هو رؤيا من سيِّدتنا والدة الإلّه الكليّة الطوبى-فقرَّر أن يرحل. أولاده اقتنعوا، قالوا وصلنا ونبقى، أمَّا هو فرفض. قال للعطوي الكبير إنّه يبقى دون أن يغيّر دينه.

«أنا لا أغيّر ديني»، قال نصّار، «أبقى وأصلّي لإلّه آبائي وأجدادي، أنا حرّ وأنتم أحرار».

رفض الشّيخ العطوي وقال إنّه بهذا يخرّب الضيعة، وسوف تعود «قانا» أرضاً للغزوات.

كان نصّار الكبير في السبعين، واعتقد، حين اتّخذ قرار الهجرة إلى «قانا»، بأنّه يجنّب أولاده الموت، ويختار لنفسه النّهاية اللائقة بشيخوخته. لكنّه رفض أن يغيّر دينه، وقرّر أن يمضي إلى حيث لا يعلم. أمر أولاده بالمسير فمشوا خلفه، وحطّت بهم الرحال في «عين كسرين»، حيث بدأت غربتهم الحقيقيّة. الأولاد ماتوا واحداً بعد الآخر، وقيل يومها إنّهم أصيبوا بمرض غريب قضى عليهم خلال ثماني سنوات. كان الرّجل يصاب بالإعياء، ولا يعود قادراً على النّهوض من فراشه، ويموت خلال شهر. قضى نصّار سنواته الأخيرة في الذلّ، وصل إلى «عين كسرين» حيث عاش انهيار وضعه الاجتماعي السابق بوصفه شيخ عشيرة، ودفن أولاده الثّمانية واحداً بعد الآخر في هذه القرية التي ترتفع عن سطح البحر أربعئمة متر، والمليئة بأشجار التوت، والفراشات البيضاء، وشرانق الحرير الصفراء. دفن أولاده واحتفظ بسرّه في أيدي النّساء. فالنّساء الثماني دفنَّ، والأساور الذّهبيّة في أيديهنّ من المعصم إلى الكوع. قال لأحفاده ادفنوا النّساء مع الذهب، وعندما تنقشع الأيّام يجد أحفادنا

الذّهب في المقابر. وأوصى أن يبقى السرّ في العائلة.

ثماني نساء دفنَّ بهذه الطريقة، قبل أن تبدأ المذابح، ويشنق الجدّ الثّالث في ساحة البرج، متّهماً بجريمة لم يرتكبها، وتتفرّق العائلة وتهاجر إلى أميركا الجنوبيّة، ولا يبقى سوى إبراهيم الجدّ وولده يعقوب الّذي كان هو أيضاً يستعدّ للهجرة إلى كولومبيا، قبل أن تصل تلك الرّسالة اللعينة التي تعلن وفاته.

إبراهيم أخبر نورما عن حكاية القبور التي دفنوا فيها الذّهب، ونورما لم تصدّق، ظنّته يؤلّف حكايات كي يبهرها. كان إبراهيم هكذا دائماً، يخبرها الحكايات قبل أن يغازلها، وكانت عيناها تكبران وهي تستمع إلى القصص الغريبة كأنّها لا تصدّق. والحقيقة أنّ الحكاية كما رواها إبراهيم تبدو مستغربة، فقرية «قانا» لا تضمّ فقط سكّاناً مسلمين، بل هناك أقليّة مسيحيّة في القرية لها كنيستها، وهي من طائفة الرّوم الكاثوليك. هل تكوّنت هذه الأقلّيّة في هجرة لاحقة بعد تدخّل الجيوش الفرنسيّة في لبنان عام ١٨٦٠؟ أم أنّ حكاية عائلة نصّار ليست حقيقيّة، والنّسب الغسّاني ليس سوى أسطورة صغيرة داخل هذا البلد الذي اسمه لبنان والمليء بالأساطير؟

إبراهيم أخبر نورما عن معاصم النّساء المليئة بالذّهب، لكنّه لم يخبرها عن الليرات الذّهبية المخبّأة تحت بلاط غرفة والده الّتي تحوّلت بعد ذلك إلى مكان تتكدّس فيه جميع الأغراض القديمة. بلى، ربّما، هو لا يذكر، لكن من المرجّح أن يكون قد أخبرها عن الليرات الذّهبية ليلة إعدام حنّا. كانت نورما عنده، نام معها وشعر بتشنّج في عنقه، وتنمّل في ذراعه اليسرى، فاعتقد أنّها مؤشّرات

ذبحة قلبيّة. وعد نورما بالزّواج لأنّه كان مقتنعاً بأنّه سيموت سريعاً، وكان يرى رغبته في الحياة تذبل. فبعد غياب صورة ماري بجّاني خلف أولادها الذين تجرّهم خلفها في الشارع، وبدانتها المفرطة التي ظهرت فجأة بعد إنجابها ابنها الثّاني، لم يعد إبراهيم يشعر بأيّة رغبة في النّساء، حتّى ممارسة الجنس مع نورما كانت تتمّ بغير شهيّة. لم يعد يشعر بظهره يتقوّس وهو ينتصب، ولا بذلك التنمّل الذي يحيط بشفتيه. هذا ذهب من زمان. ينام دون شهيّة، ويصل دون أن يشعر بالوصول، والفتاة تحته تغمض عينيها وتبكي. لا شيء آخر. لا تنهّدات كالتي يراها ويسمعها في أفلام السينما، ولا جموح الرّغبة التي يختبرها حين يمارس العادة السرّيّة. اعتقد أنّه سيموت، فقرّر أن يتزوّج نورما تكفيراً عن ذنبه لأنّه فضّ بكارتها، رغم أنّه لم يقتنع بأنّه الفاعل. يومها أخبرها عن وجود الليرات الذهبيّة، لكن هل أخبرها أين خبّأها والده؟ لا أحد يدري! فعندما جاء آل الجاهل وطردوا نورما من البيت وجدوه على حاله، العنكبوت في مكانه، والبلاط في غرفة الأب لم يتزحزح أو يكسر، ولم يشكّ أحد بأنّها سرقت المال أو قتلت إبراهيم أو ساهمت في قتله. وحده حنّا شكّ في نورما، ونظر إليها وهي تقف كالمعتوهة في الشارع بعد دفن إبراهيم، وكأنّه لا يعرفها.

حكايات عظام الأيدي التي تحيط بها الأساور الذهبيّة أخذت عقل نورما. وكانت تطلب من إبراهيم أن يأخذها إلى القرية كي يبحثا عن القبور. قال لها إنّه لا يعرف أين القبور، وأنّه لم يعد متأكّداً. فجميع قبور القرية التي تحيط بكنيسة مار جرجرس هي لآل نصّار، وليس منطقياً أن يقوم بنبش جميع القبور، وأنّه سيبحث في صندوق والده

علّه يعثر على الأسماء. الصندوق الخشبيّ المطعّم بالصدف على الطّريقة الدمشقيّة، كان موجوداً في الزّاوية اليمنى من الغرفة، وكان الأب يضع فيه كلّ شيء، حسابات الدّكان، أوراق، صحف قديمة، شهادات الميلاد والوفاة، صكّ ملكيّة البيت ومقبرة «عين كسرين». إبراهيم قرّر أن يفتح هذا الصندوق وينظّم أوراقه، من أجل أن يعرف سرّ النّساءِ وأين جرى دفنهنّ، لكنّه لم يفتحه. بلى، فتحه مرّة واحدة، فخرجت رائحة تشبه رائحة الموت، شمَّ رائحة غريبة، ذكّرته برائحة جثّة والده قبل وضعه في التّابوت. العمّة قالت إنّها رائحة «النّفتالين»، وأنَّ الوالد كان يضع «النّفتالين» في هذا الصندوق خوفاً من أن يأكل العثّ الأوراق، وطلبت من إبراهيم استبدال حبّات «النّفتالين» القديمة بحبّات جديدة. لكنّ إبراهيم أقفل الصّندوق بسرعة قبل أن ينظر إلى ما في داخله، وبقي نصف ساعة يتقيّأ في الحمّام.

لم يكن إبراهيم يحبّ الخادمات، كما اتّهمته عمّته، لكنّ نورما كانت شيئاً آخر. نورما لم تكن خادمة، أمّها كانت. لا يستطيع إبراهيم أن ينسى وجه «خالتي نبيهة». وجه أبيض مستدير، وعينان كبيرتان سوداوان، وجسد أبيض. كانت نبيهة ملتفّة على نفسها. جسدها ممتلئ قليلاً وجميلة. وقد عاشت في بيت صغير مع بناتها الأربع وأمّها العمياء التي تعرف جميع الحكايات. كانت الأمّ لا تغادر البيت أبداً، تجلس على السّجادة وتنام عليها، وتحبّ أكل الفول الأخضر. نبيهة كانت ممتلئة حيويّة، لا ترى زوجها إلاّ شهرين في السّنة، خلال العطلة الصيفيّة التي كان الأستاذ حاتم عبد المسيح يقضيها في بيروت لأنّه كان يعمل مدرّساً ابتدائيّاً في إحدى قرى محافظة «السّويداء» في سوريا. تعرّف الأستاذ حاتم على نبيهة في بيروت،

حين جاءها لزيارة شقيقته نظيرة المتزوّجة من عامل بناء سوري. وقالوا إنّه أحبّها بشكل جنوني، وهدّد بالانتحار إذا لم يزوّجوه إياها. رضيت الأمّ، شرط أن تبقى ابنتها إلى جانبها في بيروت.

كانت الأمّ خادمة في منزل آل نصّار، وهكذا صارت الابنة. وكانت نبيهة تملأ البيت حيويّة ومرحاً، تأتي مرّتين في الأسبوع من أجل مساعدة العمّة سارة على التّنظيف والغسيل، فيصبح البيت لامعاً مثل جبينها النّاصع وضحكتها.

بنات نبيهة تزوّجن جميعاً، وهنّ ما دون العشرين، ما عدا نورما. فنورما عبد المسيح قرّرت أن تنال شهادة البكالوريا. رفضت مصير شقيقاتها اللّواتي تزوّجن وذهبن ليعشن في قرى منطقة «حوران».

نورما لم تتزوّج، لا بسبب طموحها العلميّ وحسب، بل لأنّها عشقت إبراهيم. قالت له إنّها أحبّت جسدها من أجله. كانت نورما تقف عارية في الحمّام أمام المرآة الصّغيرة، تقف على الكرسيّ الخيزران، وتتأمّل جسدها قطعة قطعة، وتكتشف فيه جمال الأنثى. مرّة، وقفت على الكرسيّ أمام إبراهيم المستلقي على سريره، ومثّلت له كيف كانت تقف أمام المرآة.

«أنت مراية»، قالت له. «بس اتطلّع فيك ما بشوفك، بشوف حالي بعيونك، هيدا هو الحبّ».

ضحك إبراهيم وقال كفى، نزلت عن الكرسيّ وجلست على طرف السّرير عارية وهي تبكي.

عادة البكاء عند نورما لم تكن بسبب الجنس، كما اعتقد إبراهيم، فالحكاية بدأت عندما توفّي شقيقها الوحيد أنطون. أنطون كان يعيش مع والده، لأنّ الأستاذ حاتم أصرّ على أن يدرس ابنه الوحيد تحت

رقابته المباشرة، أمّا الفتيات فقد ترك أمر تربيتهنّ لزوجته وأمّها العمياء.

عندما مات أنطون ذهب الجميع إلي جنازته في القرية البعيدة، ما عدا الجدّة العمياء. الجدّة تقول إنّها أُصيبت بالعمى من شدّة بكائها على حفيدها، لكنّنا نعلم أنّ هذا ليس صحيحاً. أمّا نورما فصارت تبكي طوال الوقت، تبكي بسبب ودون سبب، وبدأت تخاف الماء.

«كان يلعب في الحديقة مع ثلاث قطط»، قال الأبّ، «تركته أمام البركة مع القطط، ودخلتُ إلى المطبخ لأحضّر العشاء، خرجتُ فلم أجده، بحثتُ عنه في كلِّ مكان، ولم يخطر ببالي أنّه كان يطفو على بطنه ميّتاً في البركة التي لا يزيد عمقها عن نصف متر».

مات أنطون غرقاً، وتحوّلت حياة الخالة نبيهة إلى مناحة دائمة، وقرّرت العمّة سارة منع إبراهيم من اللعب في برميل الماء.

اختفى البياض النّاصع عن وجه نبيهة، وكبر السواد الذي يحيط بعينيها وصار يشبه الثوب الحوراني الطويل الذي تلبسه أمّها العمياء. فالأمّ رفضت أن تلبس الثّياب المدنيّة كما كانت تسمّيها، وأصرَّت على الاحتفاظ بذلك الثّوب الأسود الطّويل الّذي يغطّيها حتّى كاحليها، ويبدو وكأنّه امتداد للوشم الأزرق المدقوق على ذقنها. صارت نبيهة تشبه أمّها، وتوقّفت عن العمل في منزل آل نصّار، وانصرفت إلى الصّلاة والصّوم وزيارة الكنائس.

نورما لم تكن خادمة، كانت تلميذة، صحيح أنّها ساعدت العمّة سارة في الكثير من الأعمال المنزليّة، لكنّها كانت ترفض أن تتقاضى أجراً، ولم تكن تأتي من أجل الشّغل، بل للزيارة، وتساعد. وكانت سارة تهديها ثياباً جديدة وتدسّ في جيوبها بعض اللّيرات.

هكذا بدأت الحكاية.

في ذلك الزّمان، كانت عائلة يعقوب نصّار المؤلّفة منه ومن شقيقته سارة وابنه الصّغير إبراهيم، تستعدّ للهجرة إلى كولومبيا، حين وصلت تلك الرّسالة التي ألغت كلّ شيء، وحطّمت حلم الرّجل بالهجرة.

من كتب الرّسالة؟

ما العلاقة بين جريمة قتل غامضة حصلت في كولومبيا، وبين هذه العائلة التي باعت الأرض في «عين كسرين»، وكانت تستعدّ للهجرة النّهائيّة إلى أميركا الجنوبيّة؟

هل كان الكاتب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز يعلم حين كتب روايته «قصّة موت معلن» أنّه يكشف سرّ تلك الرّسالة الّذي بقي غامضاً فترة طويلة، أم أنّ حكاية ماركيز لا علاقة لها بموضوعنا، وصلتها الوحيدة به هي الأسماء التي قد تتشابه وتتكرّر؟

يقول مثل هندي «اسمك هو مصيرك»، الاسم هو المصير، خاف العرب من الأسماء، فتسمّوا بأسماء الحيوانات اتّقاءً لشرّها، لذلك فإنّ عمليّة اختيار اسم المولود الجديد في جميع العائلات بالغة الصّعوبة. يعقوب نصّار لم يجد صعوبة في اختيار اسم ابنه، سمّاه على اسم والده، وكان يتوقّع من ابنه أن يسمّي ابنه على اسمه، لكنّ إبراهيم لم ينجب أولاداً، مات دون أن يسمّي أحداً.

نعود إلى حكاية ماركيز، كيف اختار الكاتب الكولومبي أسماء أبطاله، هل جاء اسم سانتياغو أي يعقوب صدفة، أم أنّه كان يكتب عن الشّخص الّذي تعرّفنا إليه في قصّتنا هذه؟

لا أدري.

أعرف أنّ الروائيّين يتعذّبون كثيراً في اختيار أسماء أبطالهم. الكاتب الرّوسي تشيخوف كان يطلب من أمّه أن تبعث له أسماء النّاس في القرية كي يستخدمها في قصصه. أعرف كاتباً لبنانيّاً كان خلال الحرب الأهليّة يفتح الرّاديو ويسجّل أسماء الأعداد الهائلة من القتلى والجرحى المدنيّين، الذين كانوا يسقطون بعد كل جولة عنف، كي يستخدمها في رواياته.

أسماء الأبطال هي مشكلة الرّواية الحديثة، فالحداثة هي الانتقال إلى الفرد، والفرد لا وجود له دون اسم. من أين نأتي بالاسم؟

في الحكايات التقليديّة، «ألف ليلة وليلة» أو القصص الشّفهيّة، لا وجود للأسماء، الأسماء هي معانيها. الاسم موجود كصفة «نور النّهار»، كي ندلّ على المرأة الجميلة، أو كمهنة «الخيّاط» و«الصيّاد»، أو كوضع اجتماعي «الأمير»، أو كانتماء ديني «النصراني» و«اليهودي». إنّها أسماء مُغفلة، فالاسم هو الدّور والمعنى. أمّا في الأدب الحديث فيجب أن ننسى الدّور والمعنى، وننتظر من الاسم أن يجد معناه. اسمك ليس مصيرك، مصيرك هو الذي يعطي اسمَك الدلالة.

سانتياغو نصّار لا علاقة له بيعقوب الذي تصارع مع الملاك كما جاء في التوراة. سانتياغو نصّار هو مجرّد مهاجر غريب يموت وحيداً ومذبوحاً بسكاكين الأخوين بيدرو وبابلو فيكاريو.

تستدعي حكاية سانتياغو نصّار، كما رواها ماركيز عدّة مستويات من التّحليل، ولاسيّما ذلك الجانب الّذي يذكّرنا بالحلم. أسطوريّة الحكاية تشبه المنام. سانتياغو نصّار الذي بدا وكأنّه يرتدي ملابس من الألمنيوم، ويمشي كالشّبح، «كان نحيلاً شاحباً له حاجبان عربيّان وشعر أجعد ورثه عن أبيه». هذا الشبح يشبه شبحنا، فإبراهيم نصّار كما وصفته نورما لصديقاتها في المدرسة كان نحيلاً شاحباً وله شعر أجعد وحاجبان كثيفان طويلان. لم تقل نورما إنّهما حاجبان عربيّان لأنّها عربيّة. هذا الشّبح يشبه ذلك الشبح، ولكن لماذا ذبح سانتياغو نصّار بتلك الطّريقة؟ هل لأنّه فضّ بكارة أنجيلا فيكاريو كما ادّعت أمام زوجها بيار دوسان رومان؟ لماذا اتّهمت أنجيلا سانتياغو بهذا العمل، ولماذا سكت الجميع؟

الجميع كانوا يعلمون أنّ سانتياغو سوف يذبح صبيحة ذلك اليوم، لماذا لم ينبّهه أحد؟

هل لأنّهم لم يصدّقوا كما ادّعوا أم لأنّه كان عربيّاً، فتركوه يذهب إلى مصيره المحتوم؟ لماذا تركوا هذا اللبناني المهاجر الذي لم ينسَ لغته العربيّة على الرّغم من أنّ أمّه لم تكن تتكلّمها، يموت بتلك الطّريقة الوحشيّة. يذبح في السّاحة وتندلق مصارينه ويشمّ رائحة موته، وهو يقف مترنّحاً أمام باب بيته المغلق؟

هل لأنّه غريب؟ وهل الغربة تعني الموت؟

الغرابة في موت هذا الغريب ليست تلك المذبحة التي حوّلته أشلاء، وجعلته يتذكّر وهو بين الحياة والموت حكايات والده إبراهيم عن المذابح والعنف في تلك القرية البعيدة التي يلفظ اسمها بصعوبة، الغرابة هي الموت الذي يشبه المنام. سانتياغو كان غريباً

في تلك البلاد البعيدة، ولم يكن يحبّ حساء أعراف الديكة الّذي يعشقه المطران. أكلته المفضّلة كانت اللّبن المطبوخ، مثل والده الذي كان يأخذه معه إلى مزرعته حيث يخصيان العجول، ويأكلان، ويشربان «التّكيلا»، التي كان يسمّيها الأب العرق.

تقرأ الحكاية، فيأخذك المنام إلى المتاهة. السرّ هو المتاهة. من أدخل سانتياغو نصّار تلك المتاهة من المنامات؟ ولماذا اتّخذ حين جاءه الموت شكل السّكاكين المخصّصة لذبح الخنازير. سانتياغو نصّار لم يذق خنزيراً في حياته، صحيح أنّه كان مسيحيّاً كاثوليكيّاً، كما كان آباؤه وأجداده، لكنّه قادم من ديار الإسلام، والخنزير دنس. رغم ذلك فقد اختلط دمه بدماء الخنازير وسقط يخور، وهو يشمّ رائحة أحشائه التي احتلّت وجهه وخنقته. مات سانتياغو مخنوقاً برائحته ورائحة الخنازير الطّالعة من سكاكين الأخوين فيكاريو. ويومها أمطرت خراء العصافير. كان المطر يخرج من أحشاء الفتى. اختلط موته بمنامه، ففي ذلك اليوم الذي كان سيقتل فيه، حلم بأنّه يجتاز غابة من أشجار التّين، حيث كان يهطل رذاذ ناعم. وحين سقط ملوّثاً بأمعائه دخل في منامه من جديد، وتحوّلت أشجار التّين إلى كابوس من الرائحة والتّلاشي ووجع القدمين.

لماذا اختارته أنجيلا فيكاريو كي يدفع ثمن بكارتها؟ وبعد موته اشتعلت حنيناً جنسيّاً عصابيّاً إلى زوجها بيار دوسان رومان. ماركيز لا يخبرنا السّر، يروي الحكاية بوصفها حكاية، يرويها كي يجد سياقاً للموت داخل المنام، ويستعيد بذلك الحديث النّبوي الشّريف «النّاس نيام فإذا ماتوا انتبهوا».

ولكن لماذا؟

لماذا كان الغريب اللبناني هو الضحيّة؟ هل لأنّه كان يتكلّم لغة أخرى؟ أم لأنه بدأ ينسى لغته؟

ألبير كامو قدَّم اقتراحاً آخر. فالغريب في روايته يَقْتُل. غريبنا العربي ذُبح كالنّعاج، والغريب الفرنسي قَتَلَ جزائريّاً لأن الشّمس أحرقت عينيه. الأوّل مات بمجانيّة، والثّاني قَتَلَ بمجانيّة. الأوّل كان عربيّاً وضحيّة، والثّاني كان فرنسيّاً وضحيّته عربيّة. الفرنسي كان غريباً بين العرب في الجزائر، واللبناني كان غريباً في بلاد بعيدة.

هل الغربة هي الحنين؟

هل يعني أن تكون غريباً أن تحمل حنيناً غامضاً إلى ذاكرة بعيدة. وهل الذّاكرة تقتل؟

إبراهيم يعقوب نصّار لم يكن غريباً في بيروت، لكنّه عاش كالغرباء. عمّته كانت تقول إنّه غريب الأطوار، وكان لا يحلم إلاّ بالسّفر إلى أميركا. العائق الحقيقي أمام سفره هو الخوف. كان إبراهيم نصّار يخاف أن يترك عمّته ونورما وحنّا وحي «الفرنيني»، وكان لا يستطيع أن يتخيّل الحياة دون ميدان سباق الخيل في بيروت، ولعبة البارولي التي يديرها الأستاذ إميل الزّغبي في دكّانه، وصراخ أمّ نديم حين يأتي زوجها سكرانَ في منتصف اللّيالي، ويكسر على رأسها إبريق الماء المصنوع من الفخّار، فيهرع رجال الحيّ إلى بيت سرحال ليروا أمّ نديم بقميص النّوم الشفّاف، والدم والماء ينزفان من رأسها، وهي ترفع يديها لتغطّيه، فيتلألأ نهداها من خلف إبطيها، بينما يخور أبو نديم في زاوية الصّالون، ورائحة العرق تفوح منه.

هذا العالم الصّغير كان يستولي على حياة إبراهيم نصّار في

وحدته، وهو عاجز عن اتّخاذ قرار الهجرة. كانت الهجرة حلماً يراوده بين حين وآخر، فيعطيه شعوراً بالشّباب لفترة قصيرة، فيأخذ هذا الشباب ويستهلكه في سوق البغاء، في شارع المتنبّي، وهناك صار صديقاً حميماً لمريم الحلبيّة.

مريم قالت إنّها اختارته من بين خلق الله جميعاً ليكون صديقها، والرّجل الّذي تستعيد معه نشوتها الجنسيّة، مريم الحلبيّة الجميلة السمراء كانت تقول له إنّ جسدها يشبه حقل القمح، وكان ينام بجسده النّحيل فوق حقل القمح ويسمع طقطقة السّنابل وهي تتكسّر.

«تثيرني لأنّك هكذا، لأنّك لست رجلاً»، قالت له.

وكان إبراهيم يتمتّع برنين صوتها، وهي تعدّ له القهوة الحلوة بالهال، كما كانت تحبّها.

قالت له أن لا يأتي إلاّ مرّة في الشّهر، مساء الأربعاء في الأسبوع الثّالث، حين يخفّ الشّغل. وكان يأتي كما طلبت منه.

مرّة واحدة أخلّ بالاتفاق، جاءها وكانت الشهوة تفوح منه، جاء في رأس الشّهر، وأخذ دوره كالآخرين. دفع ودخل. أشاحت مريم بوجهها عنه ونامت معه كما تفعل مع الزّبائن الآخرين، وقبل أن ينتهي قالت له كلاماً لا يذكره جيّداً، قالت شيئاً عن رجولته النّاقصة، وأمسكت بخصيتيه كأنّها تريد اقتلاعهما. فخمد كلّ شيء. تحوّلت الشّهوة إلى شعور فادح بالعجز، فمضى وقرّر أن لا يعود. لكنّه عاد في الموعد المقرّر، ونام معها كما كانت تحبّ أن ينام، يخلع ثيابه ويدخل في الفراش ولا يتحرّك، تقترب منه وتأخذه بين ذراعيها العاريتين فتنفتح في داخلها شهوات لا قعر لها. يومها لم تفاتحه

مريم الحلبيّة بالمسألة وكأنّها نسيتها، فقرّر أن ينسى.

ومرّت الأيّام، وصارت زياراته متقطّعة، وحين اندلعت الحرب تذكّرها، وخاف عليها، لأنّ شارع المتنبّي صار خطّ قتال. نزل إبراهيم الذي كان يخاف من خياله تحت القصف إلى شارع المتنبّي، فلم يجد سوى المسلّحين، سأل عن الحلبيّة فلم يستطع أحد أن يفيده بشيء عنها. لم يكن أحد من هؤلاء الشبّان الذّين يتراكضون وسط أزيز الرّصاص قد سمع بها. عاد إلى البيت حزيناً، وضاجع نورما، والدّموع تكاد تتساقط من عينيه.

ما هو هذا الشّعور بالغربة؟

هل هو الحنين، أم الوقوع في لغة أخرى؟

هل هو اقتراب من الموت، أم اختلاط الحقيقة بالمنامات؟

هل «مرسو» هو الغريب في الجزائر، أم أنَّ الجزائري الذي قُتل، والّذي لا يذكر أحد اسمه، هو الغريب؟

هل كان سانتياغو نصّار غريباً، أم الغريب هو بيار دوسان رومان الزّوج المخدوع الّذي وقع في مصيدة تلك الجريمة الغريبة؟

وإبراهيم يعقوب نصّار مات وحيداً، ولا نعلم من قتله. هل قُتل إبراهيم نصّار، أم مات بالسكتة القلبيّة؟

هل الغريب هو إبراهيم، أم نورما الوحيدة في شارع لم يعد شارعها وبيت لم يعد بيتها؟

سيّدنا آدم عليه السّلام هو الغريب الأوّل.

آدم هو أوّل شاعر عربي، وليس الملك الضّليل امرأ القيس كما يعتقد الجميع.

آدم هو الشّاعر الأوّل والإنسان الأوّل. ولغته هي اللّغة الأولى، لغة الجنّة والنّار والأرض والسّماء، ثمّ جاءت اللّعنة التي مزّقت اللّغة في برج بابل.

وكان آدم يبكي.

قال الشّيخ أبو القاسم الجنيد، رضي الله عنه، رأيت آدم في المنام وهو يبكي، فقلت له ما يبكيك يا أباه، وقد غفر لك الله ما سلف وأوعدك الجنّة، فناولني ورقة وإذا فيها هذه الأبيات:

أتحرقني بالنّار يا غاية المنى
ونار الهوى نار أحرّ من الجمرِ
شغفت بجارٍ لا بدارٍ سكنتها
على الجار أبكي لا على فرقة الدّارِ
ولو لم تعدني بالرّجوع إلى المنى
هلكت ولكن مقصدي صاحب الدّارِ

كان آدم دائم الحنين إلى ماضٍ لم يعد له، والبكاء على مكان صار بعيداً. فَقَدَ آدم الجنّة، ووجد نفسه في العراء، مشى ومشى إلى أن التقى بزوجته حوّاء في جبل، لم يعرفها في البداية، ثمّ تعارفا وبكيا، فسُمِّي الجبل عرفات. ومضى آدم إلى الشعر يكتبه ويقرأه على حوّاء، وحوّاء تنجب أطفالاً سوف يبدأون حكاية العنف والغربة والقتل والدّم.

أنشد آدم:

ستذكرني إذا جرّبت غيري
وتعلم أنَّني لك كنت كنزا

ستبكـــــي دائمـــــاً فـــي الأرض منّـــي
وتعلـــــم أنّ رأيـــــك كــــان عجـــزا

كان يقول الشّعر ويتذكّر، ثمّ أصيب بالطرش. الطّرش هو الدّواء الوحيد للغرباء، وهذا ما نسمّيه بالنّسيان. ننسى ولا يعود بمقدورنا أن نسمع. ولمّا هبط آدم على جبل الهند، كان يسمع تسبيح الملائكة من علوّ ذلك الجبل، ويشمّ رائحة الجنّة. فبعث الله إليه جبريل عليه السّلام، فوضع يده على رأسه ودكّه حتّى قبضه، فصار لا يسمع تسبيح الملائكة ولا يشمّ رائحة الجنّة. فبكى. جاءه جبريل وقال له ما يبكيك يا آدم، قال يا جبريل كنت أشمّ رائحة الجنّة وأسمع تسبيح الملائكة، فكنت أستأنس بذلك، وأنشد آدم:

إنّنـــــي للحجـــــاب أهـــــل، ولكـــــن
انتمـــو بـــالـــوصـــول أطمعتمـــونـــي
مـــا أنـــا للـــوصـــال أهـــل، ولكـــن
أسمـــع مـــا أقـــول كـــي تـــرحمـــونـــي
واصلـــونـــي فـــلا أعـــاود ذنبـــاً
أنـــا إن عـــدت مـــذنبـــاً فـــاهجـــرونـــي

قال جبريل بكيت يا آدم حين سمعت، وبكيت حين لم تسمع، فوالله لا أدري كيف يكون حالك وحال أولادك وأنتم في الدّموع.

قال آدم يا جبريل القرب أبكاني والبعد أبكاني. وجلس آدم بين يدي امرأته ورأى دموعها، ورأى أن لا مهرب من قضاء الله.

كان آدم يبكي، وكان ما وقع من دموعه على سفح الجبل قد صار سنبلاً، وما وقع على السبخ صار ملحاً، وما وقع على الأرض والأودية عقاقير وأدوية. وبكت حوّاء فما وقع من دموعها صار لؤلؤاً

نقيّاً لبناتها يُجلب ويُنتقى، وبكى إبليس لعنه الله، فما وقع من دموعه في القفار صار غيلاناً، وفي الجزائر صار شيطاناً وفي البحر صار تمساحاً.

حنين سيّدنا آدم إلى الماضي كان مزجاً للحقيقة بالرؤيا، وهذا أُسّ الحنين إلى الأطلال الذي نراه في الشعّر العربيّ القديم، فأوّل من وقف واستوقف، وبكى واستبكى كان آدم، ثمّ تبعه امرؤ القيس حين أنشد يقول:

قفـــا نبـــكِ مـــن ذكـــرى حبيـــب ومنـــزلِ
بسقـــط اللّـــوى بيـــن الـــدّخـــول فحـــومـــلِ

لم يكن سانتياغو نصّار يحمل هذا النّوع من الحنين، ولم يكن غريباً كما آدم. كلّ الذّين عرفوه اعتقدوه إسبانيّاً، أو اعتقدوا أنّه يحمل مزيجاً من الدّم، مثل ملايين سكّان أميركا الجنوبيّة. غربته جاءت لحظة موته، في تلك العزلة التي أعادته إلى مناخات كان يعتقد أنّها ليست موجودة. فهو حين كان يستمع إلى والده وهو يروي له حكاية المذبحة، وكيف وقف عبد الجليل وسط ساحة القرية والسكاكين تمزّقه، كان يشعر أنّه يستمع إلى حكاية غير حقيقيّة. «كلّ الحكايات غير حقيقيّة»، قال لخطيبته فلورا ميغيل.

كتب ماركيز:

«انحنى سانتياغو نصّار وذراعاه متقاطعان على بطنه بعد الضّربة الثّالثة، وأنّ كعجل، وحاول أن يدير لهما ظهره، فعاجله حينئذ بابلو فيكاريو، الّذي كان إلى يساره حاملاً السكّين الأحدب، بالضّربة الوحيدة في الظّهر، فانطلقت دفقة من الدّم وبلّلت قميصه. رائحة الدّم كانت كرائحته قال لي، وبعد ثلاثة جراح قاتلة، أدار لهما

سانتياغو نصّار وجهه من جديد، واستند بظهره إلى بوّابة أمّه دون أن يبدي أدنى مقاومة وكأنّه لا يريد سوى مساعدتهما في الإجهاز عليه بالتّساوي. وقال بيدرو فيكاريو للمحقّق، لم يعد يصرخ، بل على العكس بدا لي وكأنّه يضحك. عندها تابعا طعناتهما بضربات متفاوتة وسهلة، وهما يطوفان في المستنقع الباهر الّذي وجداه في الجانب الآخر من الخوف. لم يسمعا صرخات القرية المذعورة من جريمتهما. شعرتُ كما يشعر المرء وهو يجري على صهوة حصان، أعلن بابلو فيكاريو. ولكنّهما استيقظا فجأة على الواقع لأنّهما كانا منهكين. ومع ذلك فقد بدا لهما أنّ سانتياغو نصّار لن ينهار أبداً. اللّعنة لا تستطيع أن تتصوّر كم هو شاقّ قتل إنسان».

هكذا يصف القاتل ضحيّته. هم في لغتهم يقولون اللّعنة، أمّا نحن فنقول العمى. وبين اللّعنة والعمى مسافة تصنعها اللّغات وهي تفترق في رحلتها إلى اكتناه سرّ الأشياء. العمى، كأنّنا لا نرى، أو كأنّنا نستتر بالظّلمة ونخفي الخوف أو الجريمة داخل ستار اللّيل الّذي يتّسع لنا جميعاً.

كان سانتياغو نصّار غريباً وعاجزاً ووحيداً. غربته هي لغته التي لا يتكلّمها، وجريمته التي لم يرتكبها. كان ضحيّة شبه مطلقة، لذلك فهو لا يعنينا كحقيقة. الضّحايا ليسوا حقائق، الضّحيّة فكرة، حتّى السيّد المسيح عليه السّلام اضطرّ إلى صعود الصّليب كي ينتهي من كونه فكرة، ويتحوّل إلى كلمة الإنسان وهو يُقاد بهذا الشّكل الوحشيّ إلى الموت.

بدأت الحكاية هكذا.

السّؤال الّذي يأتي في البدء هو الموت. هل كان إبراهيم نصّار يعلم أنّه سيموت في بيته الّذي ورثه عن أبيه وجدّه؟ وحتّى لو عرف، هل كان يستطيع تلافي مصيره أو تأجيله؟

إبراهيم نصّار الّذي نروي حكايته، ليس فكرة، حتّى حكايته ليست حكاية. حكايته خبر عن الحياة والموت، والخبر حين يُروى، لا يُروى كاملاً. الحكايات تُروى بشكل كامل ومتناسق، لذلك يبحث الكتّاب عن أسماء الأبطال، ويجعلون من الاسم مصير الشّخصية. أمّا في خبر إبراهيم فالاسم كان في البداية، وكان البطل يتهاوى خلف أكوام المصائر التي تحيط به.

إبراهيم نصّار لم يكن غريباً في مدينته وبيته، لكنّه مات كالغرباء.

حنّا السّلمان ركض وجلب الطّبيب الشّرعي الّذي لم يكشف على الجثّة، وتمّ الدّفن بسرعة، عبر خلع باب خشخاشة آل الجاهل في المقبرة.

وجوليا لم تحضر الدّفن.

أقفلت جوليا باب بيتها ولم تعد تفتحه لأحد. قالوا إنّ المرأة أُصيبت بالإحباط واليأس لأنّ أخبار ابنتها «إيڤا» انقطعت، وفقدت كلّ وسائل الاتّصال بها.

وإيڤا كانت امرأة رائعة الجمال.

«هذه امرأة»، قال أبو يحيى لإبراهيم نصّار. كان أبو يحيى

سمكري الحيّ، يعيش مع زوجته وأولاده الخمسة قرب جامع بيضون، في بيت صغير مؤلّف من غرفتين. يعرف كلّ شيء ويتكلّم عن كلّ شيء. وكان أفضل من يفتح عيارات الماء، ويسمح للنّاس بالتنعُّم بمياه نهر الكلب التي تشرب منها مدينة بيروت. يذهب فجر كلّ أحد إلى البحر حيث يصطاد السّمك «البولشفيك»، ويجلس في صالون بيته المفتوح حتّى في أيّام الشّتاء، يشرب العرق ويأكل السّمك. وكان أبو يحيى يملك نظريّته الخاصّة عن السّمك «البولشفيك»، فهو يعتقد أنّه أفضل أنواع السّمك، وهو سمك روسي قاتم اللّون ومليء بالحسك، هرب من البحر الأسود مع السّفن القادمة إلى شاطئ المتوسّط.

قال أبو يحيى إنّه إذا ضاجع إيڤا يعود شابّاً. «ضرب واحد بسّ وبرجع شاب». نظر إليه إبراهيم بعينيه التّائهتين، «أنت ما بتفهم»، قال أبو يحيى «أنت طالع لأمّك، بيّك الله يرحمه كان خبير في علوم الباه، أنت بلا خبرة».

كانت إيڤا جميلة. عنق طويل، جسد ممشوق وبشرة حنطيّة اللّون، شعرها الأسود يصل إلى خاصرتها، وتمشي متهادية في الشّارع. سحر إيڤا كان في لونها، تستطيع أن تصفها بأنّها كانت حنطيّة، لكن الحقيقة غير ذلك. فهي تبدو مرّة بيضاء ومرّة سمراء، كان لونها يتغيّر مع تغيّر الفصول. عاشت إيڤا مع أمّها جوليا ووالدها جورج النّاشف الّذي كان يعمل طبّاخاً عند آل الدّاعوق في رأس بيروت. جاء جورج النّاشف من قريته «دفون»، في جبل لبنان، ليشتغل طبّاخاً في بيروت. كثيرون من رجال هذه القرية غادروها ليمتهنوا طبخ الطّعام في بيروت، وكان الأكل الدّفوني شهيراً في تلك

الأيّام. لم ينجب جورج سوى هذه الابنة الوحيدة التي كان يحلم بتزويجها من رجل غنيّ. لكنّ الأقدار شاءت غير ذلك. الأقدار قادت الفتاة إلى الشّارقة بعد موت أبيها المفاجئ، والأقدار حوّلتها إلى ما صارت عليه.

ذهبت إيڤا إلى الشّارقة للعمل في شركة أميركانيّة، كما قالت والدتها، ثمّ فاحت الرّائحة. قيل إنّ الأمير هام بها وأرادها لنفسه، وأنّها صارت خليلته العلنيّة، لكنّها لم تتزوّجه. كان ذلك الأمير الذي يتحدّث عنه جميع سكّان الحيّ بلا اسم. لم يعرف أحد اسمه، لكنّهم كوّنوا عنه صورة محدّدة، رجل ستّيني يقع في هيام فتاة في العشرين.

وكانت إيڤا تعود إلى بيروت مرّتين في السّنة، في الشتاء، حيث تقضي عيد الميلاد مع أمّها، وفي الصّيف، هرباً من حّر آب في الخليج.

لم تتكلّم إيڤا عن الأمير ولا مرّة. كانت تلبس فستاناً أسود يصل إلى تحت ركبتيها، وتقول إنّها لن تخلع ثياب الحداد على زوجها. لم يعرف أحد بهذا الزّواج. كانت إيڤا النّاشف تكذب. تلبس الثّوب الأسود لتوهم النّاس بأنّها تزوّجت وترمّلت صبيّة، وتعمل في الشّارقة بحثاً عن الرّزق والسّترة.

وإبراهيم يحلم بالزّواج من امرأة مثلها. يحلم بالثّوب الأسود الّذي يغطّي الرّكبتين، وبالرّكبتين الدّافئتين، وتلك الابتسامة العريضة التي تكشف عن صفٍّ من الأسنان البيضاء المتراصفة. إبراهيم، ككلّ سكّان الحيّ كان يعلم قصّة الأمير، ولم يكن يشير إليها في كلامه مع جوليا وابنتها. كان النّاس يذهبون للسّلام على إيڤا حين تعود، ويستمعون إلى حكاية الشّركة التي تعمل فيها، ويناقشون شروط

العمل، وهم يعلمون أنّ إيڤا تكذب عليهم، وإيڤا تعلم أنّهم يكذبون عليها. والكذبة تستمرّ، والنّاس تتحدّث مع بعضها. كان إبراهيم يستمع إلى إيڤا، ويتخيّل الأمير الكهل الّذي قلع نصف أسنانه، وهو يتلظّى حين يحتضن الفتاة باللّباس الأسود، يهبها المال، ويمسك بها كما يمسك بقطع الآثاث التي يملكها، ويفترشها كأنّها شرشف يصلح غطاء لبدنه المترهّل.

إيڤا لم تكن تروي شيئاً عن تلك البلاد، تروي عن الحرّ والعمل الكثير ومكيّفات الهواء والتّعب، وتسكت. يتحوّل تعبها إلى سكون غريب يحيط بوجهها المستطيل وغمّازتيها الصّغيرتين. لم ترو إيڤا حكايتها لأمّها أو للعمّة سارة. مرّة واحدة لعنت جوليا «حمّانا» والحياة في «حمّانا». فسألت سارة ابن شقيقها عن «حمّانا»، والكرز الحمّاني الشّهير، وعن كلام جوليا غير المفهوم عن تلك القرية الجبليّة الّتي تحوّلت إلى المصيف الدّائم للأمراء الخليجيّين في لبنان.

«جوليا اشتغلت في حمّانا، بعد وفاة زوجها»، قال لعمّته، وروى لها حكاية العسكري اللّبناني الّذي هجم على أمير خليجي وضربه، لأنّه اكتشف أنّ الأمير لم يستأجر منزل عائلة خطيبته للاصطياف، بل استأجر المنزل بمن فيه، استأجر الأبّ كسائق، والأخّ كمرافق، والأمّ والابنة من أجل اللّهو والمتعة وتلك الأشياء. . . يومها، جاء الجنديّ لزيارة خطيبته، فمنعه المرافق، أي شقيقها، من دخول البيت. دفع المرافق ودخل، فوجد الأمير يشرب الويسكي محاطاً بالمرأتين. في التّحقيق، قال الجنديّ إنّه لم يعد يرى أمامه، هجم على الأمير وضربه. قال الجنديّ إنّه لم يكن يعلم أنّه يضرب أميراً، «ضربته»،

قال، «كأنّ شيئاً في داخلي أمرني وأنا لا أعي»، هكذا كتبت الصّحف يوم ٧ تموز ١٩٦٢. الجنديّ حكم عليه بالسّجن لمدّة سنتين، والأمير عاد إلى بلاده معزّزاً مكرّماً. يومها، اعتذرت الحكومة اللّبنانيّة بكامل أعضائها من الأمير. وبدل أن يكافأ العسكريّ المسكين الّذي دافع عن عرضه وشرفه، كما كانوا يسمّون تلك الأشياء، جرى اعتقاله ومحاكمته، والاعتذار عن «خطئه» الفادح.

يُقال إنّ إيڤا تعرّفت إلى الأمير في حمّانا، عندما اشتغلت أمّها طبّاخة في أحد تلك البيوت، بعد وفاة زوجها. مَنْ هو هذا الأمير؟ ليس من المؤكّد أنّه كان أميراً، بل يكفي أن يكون شيخاً، ورائحة الكولونيا تفوح منه، كي يُسمّيه النّاس أميراً. وحكاية الكولونيا طريفة، لأنّ «أمراء حمّانا»، كما أسماهم النّاس، كانوا يكثرون من وضع الكولونيا على وجوههم وأجسامهم كي يخفوا رائحة البترول، بينما النّاس كانت تبحث فيهم عن تلك الرّائحة التي يحاولون إخفاءها.

في «حمّانا» بدأ كلّ شيء، وغادرت إيڤا إلى تلك البلاد البعيدة، بينما غرقت جوليا في المال الّذي بدّدته يميناً وشمالاً، كأنّها وجدت سبيلاً للانتقام من الفقر الّذي عاشته مع الطبّاخ.

وانقطعت أخبار الابنة.

جوليا أخبرت الجميع أنّ الابنة ضاعت في تلك البلاد. زارت رجال الحيّ واحداً واحداً، وأخبرتهم مأساتها. إبراهيم وحنّا وأبو يحيى تطوّعوا للذّهاب إلى السفارة بحثاً عن عنوان إيڤا. سألهم الموظّف عنها، فلم يعرفوا جواباً. «في أيّة شركة تعمل الآنسة»، سأل الموظّف.

لم يعرف حنّا أن يجيب بغير أنّها ليست آنسة، بل سيّدة، وهي أرملة. أمّا بقيّة الأسئلة فلم يكونوا يعرفون أجوبتها. وجوليا لم تكن تعرف. حتّى اسم الأمير قالت إنّها لم تعد تتذكّره.

ضاعت جوليا. اختفت آثار ابنتها الوحيدة، ودخلت في الفاقة المطلقة. لم تعد تملك ثمناً لشراء رغيف خبز. كانت سارة ترسل لها الخبز والطّبيخ والبن والسّكاير. لولا سارة لماتت جوليا مثل الكلبة.

«أنا ما بدّي موت مثل الكلبة، وصير متل جوليا». قالت سارة لإبراهيم حين حدّثها عن مشروع سفره إلى المكسيك.

«يا عمّتي بسافر، وببعتلك تلحقيني»، جاوبها.

«وإذا ما بعتلّلي، شو بصير؟ . . .»

«ما بصير شي، ببعتلك».

«لا، بسافر معك».

«بطّلت سافر، خلص، رضيتي».

هل صحيح أنّ جوليا لم تكن تعرف اسم الأمير الذي عاشت عنده ابنتها؟ أم أنّ التّواطؤ المطلق بين المرأتين منعها من البوح بسرّ الابنة، مفضّلة الموت جوعاً وخوفاً؟

صارت جوليا تخاف، وتقفل نوافذ بيتها الخشبيّة ليلاً ونهاراً، وحين يدخل الزوّار القلائل بيتها يسبحون في العتمة والرّطوبة. تجلس في زاوية الصّالون كأنّها شبح، وتصمت. وفي بعض اللّيالي الممطرة، كان سكّان الحيّ يستمعون إلى أصوات تشبه الزّغاريد، وكان الصّوت يأتي بعيداً من ذلك المنزل المتوحّد.

جوليا كانت غريبة. لا يحتاج الإنسان إلى جدّنا آدم عليه السّلام، ولا إلى قصائده، كي يكتشف أنّ الغربة لا تفترض الهجرة، أو الطّرد من

الجنّة. يستطيع الإنسان أن يكون غريباً في بيته وبين جيرانه. الغربة هي هذا الصّراخ الّذي يخرج من الأعماق، ويتّخذ شكل الزّغاريد.

كان إبراهيم حين يستمع إلى ولولة جوليا في ليالي الشّتاء الممطرة يشعر أنّ شيئاً في داخله يكاد يصرخ، لكنّه لا يصرخ. ينصرف إلى حياته الموزّعة بين ثلاثة أقانيم: سباق الخيل، وطاولة النّرد، ونورما. العمل كان عملاً، فبعد نجاح «السّوبرماركت» لم يعد هناك من أفق، كلّ شيء رتيب في الدّكّان. كان إبراهيم يضع محرمته البيضاء على رأسه، ويعقدها من أطرافها الأربعة فتصير مثل طاسة. وإذا رأى النّاس محرمة تلتمع تحت الشّمس أو مبلّلة بالمطر، عرفوا أنّ إبراهيم عائد من ميدان سباق الخيل مشياً على قدميه، لأنّه صرف كلّ ما يملك في المراهنات، ولم يعد يحمل ثمن أجرة الحافلة. علاقة إبراهيم بسباق الخيل تحوّلت إلى هوس مزمن، بعد دخول حنّا السّلمان وشقيقه صموئيل السّجن، ووعده لنورما بالزّواج منها، ثمّ خروج حنّا من السّجن وبداية تغيّره بتلك الطّريقة العجيبة.

تغيّر حنّا، وكلّ شيء تغيّر.

خرج حنّا من السّجن وصار رجلاً آخر، توقّف عن لعب الطّاولة، لم يعد يفتح دكّان الإسكافيّ إلاّ مرّة في الأسبوع، وصار يشتغل لا أحد يعلم ماذا. يغيب عن الحيّ أيّاماً ثم يظهر فجأة. تغيّر حنّا، صار صوته منخفضاً، وأصبح يتلعثم في كلامه. قيل إنّه صار يحكي ويمشي مثل سامي الخوري، المهرّب الكبير الذي اختفى عام ١٩٦٣ في الصّحراء الأردنيّة، أو في مدينة دمشق، أو لا أحد يعلم أين.

بدأت الحكاية هكذا.

استفاق حنّا السّلمان على قرعٍ عنيف. كانت الخامسة صباحاً، وهو بين النّوم واليقظة. سمع قرعاً، نهض، فتح الباب، رآهم، ولم يفهم. أظهروا بطاقات، ودخلوا. كان شبه عارٍ، لا يلبس سوى كلسونه الأبيض. أخذوه هكذا. نهضت زوجته على صوت الجلبة، رأته واقفاً بكلسونه، ورجال غرباء يحيطون به ويدفعونه إلى خارج البيت. نظر إلى زوجته وقال لها «بسيطة، مجرّد غلطة، ساعة وبرجع». مضى ولم يرجع. حوكم واعترف، وحُدّد موعد الإعدام، الجميع صدَّقوا. إبراهيم صدَّق، ونورما صدَّقت، وجوليا صدَّقت. حتّى الزوجة صدَّقت. الأدلّة واضحة ودامغة. وحنّا اعترف. خرج أخوه صموئيل من السّجن بريئاً، وحنّا قال إنّه قام وحده بكل تلك الأعمال الإجراميّة المخيفة.

حياة حنّا السّلمان بدأت في السّجن، وتحديداً في الشّهر الفاصل الّذي سبق تنفيذ ذلك الحكم الذي لم ينفَّذ.

عاش حنّا في بداية سجنه كالكلب. كانوا يضربونه كأنّه حيوان. يُضرب بالسّياط، يرشّ الملح على جروحه ويضرب من جديد. يعلّق كالفروج المشوي، ويُضرب حتّى يتعب الجلّادون. وُضع في غرفة صغيرة، والماء يغمره إلى وسطه لمدّة أربعة أيّام. يقذفون له بالرّغيف، فيقع الخبز في الماء الملوّث ببوله وبرازه. يأكل ويئنّ. ولم يعترف. ولم يكن هناك شيء يعترف به. الأسماء التي قيلت في

التّحقيق لا يعرف عنها شيئاً، والجرائم الّتي اتّهم بارتكابها، لم يسبق له أن سمع بها.

وأتى المحقّق أحمد العابد. كان هذا المحقّق الشّاب مختلفاً، أخرج حنّا من غرفة الماء والصّدأ، ألبسه ثياباً صوفيّة، وجلس معه في مكتب أنيق، حيث قدّم له السكائر والقهوة. سأله المحقّق عن الجريمة المشتركة التي ارتكبها مع شقيقه صموئيل. كان صموئيل يجلس إلى جانب شقيقه، في مكتب المحقّق، من الواضح أنّه لم يتعرَّض لنفس نوعيّة التعذيب التي تعرَّض لها شقيقه. كان هناك قناعة لدى جميع المحقِّقين بأنَّ رأس الجريمة هو حنّا، وأنَّ صموئيل مغرّر به. فصموئيل الذي يصغر شقيقه بخمس سنوات، كان مايزال طالباً في صفّ البكالوريا في «ثانويّة فرن الشبّاك».

بعد أن شرب حنّا فنجان القهوة، ودخّن ثلاث سكائر، سأله المحقّق كيف فعل كلّ ذلك.

«خيّي ما إله دخل»، قال حنّا.

نظر المحقّق إلى الفتى، فتأكّد من براءته. كان صموئيل يجلس على الكرسيّ وكأنّه مربوط إليه، ولا يفهم الكلام. كأنّه لم يعد يفهم اللّغة العربيّة التي يتكلّمها المحقِّقون ورجال الشرطة والذين يضربون وكلّ خلق الله.

«أنت روح على البيت»، قال المحقّق لصموئيل، وأطلق سراحه.

خرج الفتى وبقي الرّجل.

«وأنت هات لنشوف، خبِّرنا».

«أنا ما خصّني، والله أنا بريء، أنا ما بعرف».

قال حنّا هذه الكلمات وانتظر الصّفعات واللبيط. هكذا كانت تبدأ

وجبات الضرب والتّعذيب. تبدأ بسؤال، وما أن يجاوب عليه، حتى تنهال عليه اللّكمات والصّفعات والرّكلات، ثمّ يؤخذ إلى حفلة التّعذيب التي تتدرّج في ستّة أشكال.

البوكس الدّائريّ، وهو أن يوضع السّجين وسط حلقة مؤلّفة من أربعة رجال طوال القامة، مفتولي العضلات، يلطمه الأوّل ليتسلّمه الثّاني ويلطمه دافعاً إيّاه باتّجاه الثّالث، ومنه إلى الرّابع، لمدّة ساعة تقريباً، حتّى يُصاب الرّجال الأربعة بالإنهاك، بينما يتحوّل الرجل الّذي في الوسط إلى كتلة من اللّحم والدّم والثّياب الممزّقة.

الفرّوج، وهو أن يرفع الرّجل على عصا تربط عليها رجلاه ويداه، فيصبح كتلة مستديرة مثل الفرّوج المعدّ للشيّ. تدور العصا، ويدور الرّجل المربوط، ويبدأ الضّرب العشوائيّ إلى ما شاء الله، ولا يتوقّف الضّرب، إلاّ والرّجل الفرّوج مغمى عليه.

الفلق، ترفع القدمان، وتربطان إلى قضيب، بينما يتدلّى الرّأس والجسم على الأرض، وينهال عليهما الضّارب بالعصا حتى تتورّما وتتسلّخا.

الأظافر، يركع السّجين على الأرض، ويمدّ يديه إلى قطعة خشبيّة موضوعة أمامه، يأتي رجل يضع كمّامة بيضاء على وجهه، ويبدأ باقتلاع أظافره بكمّاشة يدويّة، فيسحب الظّفر كلّه، ويترك الإصبع كتلة من الدّم. وقد يتابع الرّجل عمله فيسحب أظافر القدمين، وهي عمليّة أشدّ إيلاماً من أظافر اليدين، ولاسيّما إذا تمّت بعد الفلق مباشرة.

الكهرباء، التي تأتي عبر شريطين، أحدهما سالب والثّاني موجِب، يوضعان على جانبي الخصيتين، وتتدفّق الكهرباء في

الجسم، على شكل ضربات متلاحقة تؤدّي إلى الإغماء.

الماء، يوضع السّجين في غرفة مملوءة بالماء الآسن، لا تتجاوز مساحة الغرفة المتر المربّع، يقف السّجين والماء يصل إلى وسطه، ويترك لمدّة أربعة أيّام وسط بوله وبرازه.

بدل الانتقال من غرفة التّحقيق، إلى أحد أنواع التّعذيب التي كانت شائعة في تلك الأيّام. خلع المحقّق أحمد العابد نظّارتيه، وتطلّع مليّاً في وجه حنّا، وروى له هذه الحكاية. رواها ثلاث مرّات.

«اسمع يا حنّا. يا أخي، كلّ ما في الأمر أنّك مصاب بعقدة نفسيّة من النّساء. كنت تذهب إلى السّوق العمومي، تخنق المومس بعد أن تضاجعها، ثمّ تسحب جثّتها وراءك، وتنشرها إلى قطع صغيرة، تضع القطع في أكياس الجنفيص الكبيرة، وتدفنها قرب الشّاطئ. لم يكن عندك أهداف أخرى سوى متعة الجنس، ومتعة تقطيع الجثث. لم يكن هدفك السّرقة أو النّهب. هذا يا أخي مرض نفسيّ. أنت مريض، لم يكن عندك أهداف أخرى سوى المتعة. أنت مريض. عندما تعترف سوف نخفّف الحكم عنك. لن تحاكم كما يحاكم المجرمون العاديّون، أنت لست مجرماً عاديّاً. أنت مريض، ربّما حكمنا عليك بالبقاء مدّة سنتين في أحد المستشفيات، ثمّ يطلق سراحك، بعد أن تشفى ونتأكّد من أنّك لن تعود إلى مثل هذه الأمور الرّهيبة. يا ساتر يا ربّ. قل يا ساتر يا ربّ».

قال حنّا «يا ساتر يا ربّ».

«هلّق صرت تفهم»، قال المحقّق، «بعد يا ساتر اعترف».

«عن شو بدّي اعترف».

«اعترف أنّك قتلت أنطوانيت وإميلي».

«بسّ أنا ما خصّني».

عاد المحقّق إلى رواية الحكاية نفسها، من غير أن يزيد عليها حرفاً واحداً وكأنّه آلة تسجيل، وأنهاها بعبارة يا ساتر يا ربّ.

«قل يا ساتر يا ربّ».

قال حنّا «يا ساتر يا ربّ».

«هلّق صرت تفهم، بعد ما طلبت السترة اعترف».

«عن شو بدّي اعترف».

«اعترف أنّك قتلت أنطوانيت وإميلي».

«بسّ أنا ما خصّني».

ومرّة ثالثة أعاد المحقّق الحكاية نفسها من غير أن يزيد عليها حرفاً واحداً، وأنهى كلامه بعبارة يا ساتر يا ربّ، ولكن دون نتيجة.

بعد هذه الـ يا ساتر، بدأ الفصل الأخير من التّعذيب، وكان أكثر الفصول إيلاماً. نهض المحقّق وصرخ «أعيدوه إلى الحبس»، حدَّق في حنّا وقال له «الأفضل أنّك تعترف، القصّة واضحة، وأنا بعرفها وأنت بتعرفها، ما بقدر قلّك إلاّ يا ساتر، الله يساعدك».

لكنّ الله لم يساعد حنّا هذه المرّة.

أخذوه إلى زنزانة انفراديّة، وتركوه طوال اللّيل دون أن يتعرّض له أحد بأذى. لم يستطع حنّا أن ينام، فكلّما أغفى شعر بلسعات الفروج على ظهره، وأحسّ بالدّم يتدفّق من جسمه. تركوه كلّ الليل دون أن يزعجه أحد، وفي الصّباح دخل رجلان، أحدهما يحمل كيساً، والآخر يحمل جرّة ماء وكرباجاً.

«صباح الخير، هيدي التّرويقة»، قال الرّجل الأوّل. «تفضّل قوم كول».

«شو»، سأل حنّا.

«لازم تاكل هالكيس».

نظر حنّا إلى الكيس الورقيّ الأسمر، فرأى شيئاً أبيض.

«شو هيدا»، سأل.

«التّرويقة، كيس ملح، كيلو ملح، رح تاكله كلّه».

«ما باكل».

عاجله الرّجل الثّاني بالسّوط الّذي كانت أطرافه كتلاً من الحديد المصبوب.

«شو بدكم منّي؟».

«كول».

«بعترف».

«لا، كول».

وأكل. كان يأكل ويشرب الماء. يذكر حنّا أنّه كان يتدحرج بين الأقدام، يأكل والسّوط يلسعه، ويشرب. أكل وشرب. كان الرّجل الثّاني الّذي يحمل الجرّة والسّوط يخرج ويملأ جرّته ماء ويعود. وحنّا يأكل. بعد أن انتهى من الأكل خرج الرّجلان وتركاه مرمياً في أرض الزّنزانة، وصار يصرخ طالباً الماء ويشرب. أغمي عليه، وحين استفاق كان منتفخاً كطابة. بطنه انتفخ، وجهه انتفخ، كلّ شيء فيه انتفخ، صار مثل بالون منفوخ ومجعّد.

«رح يفقع بطني، رح موت». يصرخ ولا أحد يأتي، ثم أخذ يئنّ.

كان عطشانَ والماء بجانبه، وهو عاجز عن الشّرب.

تركوه هكذا حتّى المساء. وجاء المحقّق.

«شو رح تعترف»؟

قبل أن يسأله انحنى فوقه، كان حنّا منتفخاً وسابحاً في ما يشبه الغيبوبة.

«يا ساتر يا ربّ»، قال المحقّق. «شو يا حنّا رح تعترف».

هزّ حنّا رأسه إلى الأسفل.

«خذوه»، قال المحقّق.

حملوه في نقّالة إلى سيّارة إسعاف بيضاء، أخذته إلى المستشفى حيث جرى تنظيف جسمه من الملح، غسلوا معدته وأعطوه مصلاً، ووضعوا على رأسه كمادات الثّلج. بقي ثلاثة أيّام يرتجف بالحمّى، في اليوم الرّابع أعادوه إلى السّجن. ومن الزنزانة إلى مكتب المحقّق أحمد العابد، وهناك أعاد حنّا ما قاله المحقّق دون أن يزيد عليه حرفاً، كأنّه آلة تسجيل، وختم كلامه بعبارة «يا ساتر يا ربّ»، فقال حنّا «يا ساتر يا ربّ».

في صباح اليوم التالي، خرجت الصحف بعناوين عريضة مطبوعة باللّون الأحمر، «قاتل المومسات يعترف، حنّا السّلمان: كنت أضاجع المومس ثمّ أخنقها، وألفّها بشرشف السّرير وآخذها إلى الدّكان، أنشرها قطعاً صغيرة، وأعبّئها في أكياس الجنفيص».

وتمّت المحاكمة بسرعة.

اعتراف المتّهم كان واضحاً وصريحاً. «جريمة بلا دوافع، المجرم مريض نفسياً»، قال محامي الدّفاع. «جريمة وحشيّة وتستحقّ الإعدام»، قال المدّعي العام، وهو يحمل في يده صور الضّحايا.

وحنّا يقف وراء قفص الاتّهام بعينيه الحمراوين وشفته السّفلى المتدلّية، وحكّه المتواصل لجميع أنحاء جسمه، والبقايا البيضاء التي تتساقط منه.

وصدر الحكم بالإعدام.

الجميع صدّقوا. حتّى نورما صدّقت. قالت نورما لإبراهيم نصّار إنّها متأكدة من جنون حنّا.

كانا يجلسان على الشّرفة، والمساء يغلّفهما ببرودة خفيفة، نورما تفرك زنديها وتقول إنّها بردانة. روت عن حنّا، وكيف وقفت تلك المومس وتحدّثت عن توحّشه الجنسي، وقدرته على القتل.

«سمعت كيف حكيت»، قالت نورما. «وقفت وصارت تحكي كلام ما بيتصدّق».

«أيّ واحدة»، سأل إبراهيم.

«ميرڤت، الشّقراء الطّويلة، عرفتها».

«ما انتبهت».

«أنت دايماً هيك ما بتنتبه. وقفت المرا وصارت تحكي، قالت إنّه مجنون، بقرّب من المرا، وقبل ما يشلّحها بيشلح قشاطه، وببلّش فيها ضرب. بيضرب وبيصير وجه يتغيّر وينتفخ. ألوان وجهه بتاخد أشكال، يا لطيف، والمرا بتصير تبرم من الوجع وتصرخ، وهو بقللها على صوت واطي اشلحي. بتصير يعني كيف بدي قلّك، مثل شي واحدة منوّمة مغناطيسيّاً، وبتصير تشلح وهي عم تبرم، وهو يضرب ويبربر بصوت واطي. هو ما بيشلح، بفك سحّابة البنطلون وبشيلو، يا لطيف، وبيفوت. كأنّه سيخ نار وفات. كأنّه شي جنوني».

نورما تضحك، وإبراهيم يقول إنّه لم يسمع ميرڤت. نورما تنظر

إليه باستعلاء وشهوة، وتفرك ذراعيها العاريتين اتّقاء من البرد.

يومها شعر إبراهيم برغبة متوحّشة نحو هذه الفتاة. تأكّد من أنّها تخونه مع حنّا، وصدق كلام أبو يحيى السمكري الذي قال له إنّ «نورما واحدة شرموطة وشو بدّك فيها». في ذلك المساء اشتهاها إبراهيم كما لم يشته امرأة، وضاجعها كما لم يضاجع في حياته.

كلّ النّاس اقتنعوا أنّ حنّا هو المجرم. زوجته وأمّه والجيران، اقتنعوا عندما وقف في المحكمة واعترف بكلّ شيء.

كان حنّا في المحكمة صامتاً كالحجر، وحين جاء دوره في الكلام، اعترف بكلّ شيء. تلا عليه المدّعي العام الورقة التي وقّعها في السّجن بعد حادثة الملح وسأله:

«حنّا السّلمان، هل أنت من وقّع هذه الورقة»؟

«نعم».

«هل تعترف بالجريمة؟»

«نعم».

«هل قتلت أنطوانيت نجّار وإميلي عنتوري وجوزف عوّاد؟».

«نعم».

«هل نشرت الجثث ووضعتها في أكياس الجنفيص، ودفنتها على شاطئ البحر»؟

«نعم».

«لماذا قتلت»؟

«والله يا سيّدنا ما بعرف، يمكن مش أنا»

«شو، شو عم نلعب معك»، صرخ القاضي.

«لا، هيدا أنا، بس ما بعرف».

ووقفت تلك المرأة.

كانت بيضاء، ممتلئة، في الأربعين من عمرها، عنقها طويل، وعيناها لوزيّتان، وشعرها الأسود المائل إلى الحمرة يغطّي جزءاً من وجهها، وقالت إنَّه هو.

«أنا شفته يا سيدنا، ليلة مقتل أنطوانيت، كان عندها وشفته نازل على الدرج وعم يركض».

مدام بيانكا هي التي أعطت أوصاف حنّا للمحقِّق، بعد اكتشاف جثّة المومس أنطوانيت نجّار، واعتبرها كل الناس بطلة اكتشاف المجرم.

«كان زبون عنّا، ويجي دايماً عند ميرفت وأنطوانيت، واسمه حنّا».

«أنا»، صرخ حنّا من وراء قفص الاتِّهام.

«أنت»، رفعت يدها وأشارت بإصبعها.

وضع حنّا رأسه بين يديه داخل القفص، قرفص على الأرض، وبدأ يرتجف.

كان النّاس ينظرون إلى الرّجل في قفص الاتّهام، وهم لا يصدّقون، الزوجة خرجت مع أولادها. إبراهيم خرج قبل صدور الحكم، ولم يبقَ أحد في القاعة سوى نورما.

وفي تلك الفترة الفاصلة بين صدور الحكم وتنفيذه، كانت نورما هي الشّخص الوحيد الّذي زار حنّا السلمان في السّجن.

بدأت الحكاية هكذا.

بعد موت إبراهيم نصّار ودفنه على عجل، جاءت نورما إلى بيته وسكنت فيه. تركت منزلها وجاءت. واعتبر الجميع أنّ المسألة طبيعيّة. لم يناقشها أحد، ولم يزرها أحد. بلى، جوليا جاءت في اليوم التالي وزارتها. خرجت جوليا من بيتها المغلق النّوافذ، وجاءت إليها لتستشيرها.

«بدّي بيع البيت، شو رأيك»، قالت جوليا.

«أيّ بيت»، سألت نورما.

«بيتي»، جاوبت جوليا.

«بس هيدا مش ملكك، هيدا بالإيجار».

«مزبوط، وشو يعني»؟

«يعني ما فيكي تبيعيه».

«ما في بيعه، كيف يعني، ما هيدا بيتي. والدنيا حرب، مين رح يعرف إذا البيت ملكي أو مش ملكي، المهمّ نلاقي زبون ونبيعه».

«وشو بتعملي»؟

«شو بعمل! منكون بعنا، وباخد المصريّات وبسافر. بدي روح شوف إيڤا واتّطمّن عليها».

«وإذا رحتِ، شو بتعملي هونيك»؟

«بعمل كلّ شي. معلوماتي بتقول إنّها تزوّجت الأمير وخلّفت صبي. والصّبي رح يصير ملك، ومنشان هيك البنت ما عادت

اتّصلت. يعني معها حقّ. ابنها ملك، شو بدها تقول عنّي لابنها. بيسوا تقول للملك إنّه أنا جوليا مرت العشّي، بكون قريبته، هذا محال».

ضحكت جوليا عند كلمة محال.

«بسّ كيف عرفتِ»، سألت نورما.

«هو قلّلي».

«مين»؟..

«مار الياس ظهر لي، مار الياس الحيّ الّذي لا يموت، هو واليشع».

«مين هو اليشع»؟

«شو بدّك أنت بهالقصّة، ظهر لي هو واليشع، وكان حامل قرط موز، موز أبو نقطة يا بنتي، مش حيالله موز، أصفر ومنقّط بالأسود، وكأنّه العسل رح يوقع منه. هو إجا وخبّرني. بتعرفي يا بنتي حدا بدّو يشتري. الله يخليكِ، أنا ببيع ببلاش، يعني بسعر يكفي أجرة الطيّارة، وكم قرش مصروفي، بوصل لهونيك، وهونيك بعمل حالي صانعة، بشتغل عند الصّبي، شو عليه، بكون شو ما يكون، بعرف شو بدّك تقولي، إنّهم هونيك مسلمين، شو فيها، ما الله واحد. الدّين لله والوطن للجيمع».

وضحكت. وضعت يدها على فمها، وغرقت في الضحك.

«الله يخلّيك، بعرف يا نورما قديش قضّيتِ، بسّ خبّريني ليسش قتلتيه»؟

«مين»؟

«إبراهيم، مش إنتِ قتلت إبراهيم، النّاس عم بقولوا منشان

الدهبيات، وين خبّيتِ الدّهبيات. أنا ببيعك. أعطيني أجرة الطيّارة وكم قرش وأنا ببيعك بيتي. بعدين معك حق. العمى، صارله معك شي تلاتين سنة، ساعة بدّو يتزوّجك وساعة ما بدّو. عمره ما يرجع. يمكن إيفا هلّق بتكون قتلت الأمير، وهيك بكون ابنها صار ملك».

«ملك! يا حسرتي عليك يا جوليا».

«ما تتحسّري عليّ، تحسّري على حالك. مش شايفة حالك، وحدي شلكّة وقتلتِ الزلمة. عطيني مصاري».

«ما معي».

«ما معك، لكن مين معه، يلعن أبوك».

وقفت جوليا وبدأت تزغرد، نورما حاولت إسكاتها، وجوليا زغردت وركضت في البيت، قبل أن تجد الباب وتخرج ولا تعود.

في تلك الأيّام كانت بيروت تعيش تحت ارتجافات القصف. القذائف تتطاير في الفضاء، والنّاس يعيشون مُحْدَوْدِبي الظّهور. عاشت نورما في بيت نصّار، وكان كلّ شيء فارغاً من حولها. ثمّ أتى آل الجاهل وطردوها. أجبروها على ترك كلّ شيء في مكانه. حتّى منديلها الأزرق تركته، ومشت في الشّارع إلى حيث لا يعلم أحد، وخرجت من مسرح هذه الحكاية.

غير أنّ الحكاية جرت في السّجن.

الجريمة الّتي لم يرتكبها حنّا السّلمان، أو هكذا ادّعى، جرى ارتكابها في السّجن. والحكاية أبطالها أربعة، ثلاثة رجال وامرأة.

كان مدير حبس الرّمل، السيّد حسن الشّمع، قد تلقّى أمراً شخصيّاً من وزير الدّاخليّة بمعاملة حنّا السّلمان بطريقة خاصّة قبل

إعدامه، بعد الشّكل المزري الّذي ظهر فيه خلال المحاكمة. وكانت أجواء حبس الرمل مضطربة. فعمليّة إصلاح السّجون بدأت. طبعاً لم يجرِ إصلاح شيء. غير أنّ ضجّة أثيرت في الصّحافة عام ١٩٤٨، بسبب موت أحد المساجين، بعد انفجار زائدته الدوديّة. وكان السّجين، ويُدعى ربيع كامل الأسير، شاعراً، أو هكذا قيل، ويومها أثيرت ضجّة كبرى حول أوضاع السّجون في لبنان وضرورة إصلاحها. ونشرت تحقيقات في الصّحف حول الشّروط الصّحيّة المزرية للسّجناء، وتكدّسهم بأعداد كبيرة داخل غرف صغيرة، ومسائل النّظافة والرّياضة وإلى آخره. انتهت الحملة بعمليّة استعراضيّة قام بها مدير السّجن حسن الشّمع، اشترى مجموعة من براميل الدّهان جرى نشر صورها في الصّحف، وقيل إنّ عمليّة إصلاح السّجون بدأت بطرش الحيطان، وأنّ السجون سوف تتحوّل إلى جنّات، وأنّ فكرة السّجن علاجيّة وقائيّة، ولذلك يجب أن تتحوّل السّجون إلى ما يشبه المستشفيات وإلى ما هنالك. المستفيد الوحيد من تلك الضجّة الّتي أثيرت كان حنّا السّلمان الّذي تحوّل اسمه في السّجن إلى حنّا المالح. وتغيّر الأسماء هو من أهمّ القضايا الّتي يطرحها الجنس البشريّ على نفسه. فعائلة السّلمان هي فرع من عائلة البارودي التي هاجرت من شمالي لبنان إلى بيروت في نهاية القرن التّاسع عشر. وفي بيروت تغيّر اسم العائلة من بارودي إلى سلمان، نسبة إلى سلمان البارودي الّذي قيل إنّه مات في «حيّ البرجاوي» في بيروت، خلال الحرب العالمية الأولى منتفخاً بالجوع، بينما كان أولاده يستوردون القمح من حوران ويتاجرون به. فصار اسمهم أولاد السّلمان من أجل تحقيرهم، وتذكيرهم بالأب الّذي تركه أولاده يموت جوعاً. ويبدو أنّ المال الحرام لا يدوم،

فقد ضاعت الثروة لأنّ أولاد السّلمان اشتغلوا بالعملة العثمانيّة الورقيّة، بدل العملة الذّهبيّة، متكلين على ديمومة الدّولة السّلطانيّة كما كانوا يسمّونها. وفي نهاية الحرب العالميّة الأولى، اندثرت الدولة العثمانيّة، ودخلت الجيوش الفرنسيّة لبنان، وتحوّلت العملة العثمانيّة ورق «كدش» لا قيمة له. فصار أولاد السّلمان على الحديدة، ولم يربحوا سوى الاسم الجديد الذي تحوّل إلى ما يشبه الشّتيمة، وعادوا إلى مزاولة المهنة الوحيدة التي يتقنونها، مهنة تصليح الأحذية التي كان يمارسها والدهم. حنّا ورث المصلحة عن عمّه جرجي، ولن يورثها لابنه، كما قال لزوجته، لأنّه سوف يتخلّى عنها بعد أن تعلّم مهنة جديدة في الحبس.

الاسم تغيّر، والّذي غيّره هو أبو أحمد، رئيس رؤساء القواويش في حبس الرّمل. النّظام الّذي كان سائداً في الحبس هو وضع كل أربعين سجيناً في قاووش يرأسه أحدهم. ورئيس القاووش يوزّع المهمّات وقروانيّات الطّعام، ويأمر وينهى. إنّه عين السّلطة على المساجين، وممثّل المساجين لدى السّلطة. غير أنّ الوضع كان ينتهي بأن يتحوّل رئيس القاووش إلى جزء من جهاز البوليس، وينفصل عن المساجين الآخرين، متمتّعاً بالامتيازات، فارضاً الخوّات، يعيش ملكاً بين السّجناء، ويا ويل رئيس القاووش إذا عزل. يتحوّل إلى ممسحة. لذلك كان رؤساء القواويش مطيعين كالكلاب. يأمرهم أبو أحمد، وهو رقيب أوّل في البوليس، فيمتثلون دون نقاش. ومشهد أبو منصور نوفل رئيس القاووش الرّابع لا ينسى. إذ وُجد مشنوقاً بمنشفة معلّقة في سقف القاووش، بعد عزله بثلاثة أيّام، لأنّه خالف أوامر أبو أحمد.

أبـو أحمـد غيّـر اسـم حنّـا، وسمّـاه المـالـح، ووضعـه فـي زنـزانـة مستقلّـة هي كناية عن غرفة صغيرة طولها أربعة أمتار وعرضها ثلاثة أمتار، ووضع معه سجينين قيل إنّهما يتمتّعان بوضعيّة خاصّة. أمّا نقل حنّا من القاووش الكبير إلى الغرفة مع أحمد العتر ومنير سلوان فقد عزاه أبو أحمد إلى الوضع النّفسيّ الصّعب الّذي عاشه حنّا قبل إعدامه الوشيك.

«يا سيدنا»، قال أبو أحمد لمدير الحبس، «يا سيدنا الوضع ما بقى ينطاق، الرّجّال تعبان كتير، كلّه ملح، كلّ ما وقف بينزل من جسمه ملح أبيض، وهو مش على بعضه، يمكن خايف من الموت، ما بعرف، بس وضعه ما بقى يحتمل، لازم نحطّه لوحده، ونعزله عن بقيّة المحابيس».

وافق المدير. أمّا كيف وافق على وضع أحمد العتر ومنير سلوان فلا أحد يعلم، غير أنّ الاعتقاد الشّائع أنّهما دفعا مبلغاً كبيراً لأبي أحمد كي يجري نقلهما إلى مستشفى السّجن. أبو أحمد لم يدفع حصّة الطّبيب فرفض هذا توقيع التّقرير، وكان الحلّ الوحيد نقلهما إلى الغرفة تمهيداً للانتقال إلى المستشفى. الانفصال عن بقيّة السّجناء كان خطوة متقدّمة بالنّسبة إليهما، وافقا عليها رغم قرفهما من حنّا وخوفهما من هلوساته اللّيليّة.

في الغرفة حصلت الجريمة. وقبل أن نروي الجريمة علينا أن لا ننسى الحالة الّتي كان يعيشها حنّا السّلمان المالح. فبعد أن اعترف ومثّل الجرائم وجلب أكياساً من الجنفيص وحملها على ظهره، ووقف في المحكمة كالأهبل، لا يقول سوى نعم وعيناه تدمعان كأنّه لا يرى، والقشور البيضاء الّتي تشبه الملح تتساقط منه، دخل

في سكون غـريب لم يكن يقطعه سوى اللّيل المتوحّش الذي يعبره كلّ يوم. في النّهار كان يجلس وحيداً في زاوية القاووش. الحقيقة أنّه لم يكن يجلس، كان يقرفص طوال الوقت، وحين يتعب كان يقـف قليـلا، ويَحكّ جسمـه. فـي البـدايـة حـاول بعـض السّجنـاء السّخرية منه، ولكنّهم توقّفوا عن ذلـك لأنّ التفاتاته كانت تخيفهم. كانت عيناه الدّامعتـان تثيران القشعريرة، ووجهه المليء بما يشبه الكدمـات الـبيضـاء يبـدو كقناع الموت. أمّا ليلـه المتـوحّش فكـان مختلفاً. كـان ينام على فراش موضـوع على الأرض. يستلقي على ظهره ببطنه الذي انتفخ منذ حادثة الملح، ولم يعد إلى حالته الطّبيعيّة السّابقة أبداً. يبدأ ليله بالشّخير الّذي يصمّ الآذان، ثمّ يتكلّم. كان لسانه ثقيـلاً فلا يفهم أحد ماذا يحكي، وتتخرج كلماته كأنّها نشيج. كانت الكلمات تتحوّل إلى ما يشبه صرخات يطلقها رجل أخرس، فيستيقـظ جميع السّجناء. فـي البـداية حـاول أبـو أحمـد إيقـاظه، ولكنّه اكتشـف استحـالـة الأمـر. يجلـس السّجنـاء وهـم يـرتجفـون خـوفـاً، ويستمعـون إلـى الصّـراخ الطّـالـع مـن الجسـد المنتفـخ الملقـى علـى الأرض، ولا ينامون. وفي حوالي الرّابعة صبـاحاً كان حنّا المالح ينقلـب علـى أحـد جنبيـه فيهـدأ صراخـه ويمـوت. كـان السّجنـاء يسمّـون لحظات الرّاحة تلك، الموت. عندها كانوا ينامون بشكل متقطّع. هذا اللّيل المتوحّش دفع أبو أحمد إلى نقله من القاووش.

الغرفة كانت مخصّصة في الأساس للحرس، لكن أبو أحمد دفع قليـلاً فتمَّ تجهيزها كي تصبح صالحة لاستقبال السّجناء الثّلاثة. فتمّ وضع شبك حديديّ على نافذتها، ونزع منها قفلها الدّاخلي. وهناك حصلت الجريمة.

في الغرفة تغيّر كلّ شيء. العلاج بالمهدّئات المركّزة، الذي أخضع له حنّا، بدأ مفعوله يظهر، فصار حنّا ينام، ولم تعد صرخات اللّيل تأتيه إلاّ نادراً. وبدأ يرى، انقشعت غمامة الملح عن عينيه الحمراوين الدّامعتين. قالت نورما إنّه صار رجلاً آخر. صار هادئاً ورصيناً ويتكلّم ببطء.

حنّا يذكر كلّ شيء.

يذكر حكايات تهريب الحشيشة، وكيف أقنعه المسكين أحمد العتر الّذي سوف يموت، بالعمل مع المهرّبين.

«لكنّي سأموت»، قال حنّا. «أنت عم تضحك عليّي، أنت عارف أنّي محكوم بالإعدام وما في أمل بالعفو».

نظر العتر إلى السّماء ورفع يديه إلى الأعلى وقال إنّ الأعمار بيد الله، وأعطى حنّا رقم هاتف سليم عيد، الشوفير الخصوصي للخواجة سامي.

«أنت تلفن، شو بعرّفني، يمكن الله يوفّقك، تلفن وقول من قبل أحمد العتر، قول أنا من عند العتر، وبدّي ملفوف، وهو بيفهم».

العتر مات في السّجن، وحنّا خرج بأعجوبة، وسليم عيد ساعده على اكتشاف فضائل الملفوف، وتغيّر كلّ شيء.

لكنّ الحكاية هي نورما.

بدأت الحكاية حين جاءت نورما إلى السّجن، ورفض حنّا مقابلتها. في سجنه لم يكن حنّا يقابل أحداً، لأنّ أحداً لم يزره. وحين جاءت نورما في النّهاية، وكانت النّهاية قد اقتربت، رفض أن يراها. قال له أبو أحمد إنّ هناك امرأة، فرأى زوجته في قاعة المحكمة تمسك بأولاده ويخرجون من القاعة، قبل أن ينطق القاضي بحكم الإعدام. مضت الزوجة دون أن تلتفت صوب حنّا الواقف في قفص الاتّهام، والملح يحيط به كأنّه هالة حول رأسه. حتى شقيقه صموئيل، الّذي أنقذه من حبل المشنقة، وقف متردّداً ثمّ مضى دون أن يقترب منه. حاول حنّا أن يصرخ لهم، لكن صوته لم يخرج من حلقه. أعادوه إلى السّجن وسط كاميرات المصوّرين وشماتة الفضوليّين، وهناك تحوّل حنّا وحشاً يعيش في زاوية القاووش، ولا يكلّم أحداً، ولا يزوره أحد.

الزّوجة لم تصدّق.

قالت إنّها لا تصدّق، وبكت بحرقة لأنّها صدّقت. «شو بعرفني»، كانت تجلس في الصّالون، تندب، وهي لا تصدّق أنّها صدّقت.

«هيدا رجّال تاني. أعوذ بالله، كلّ واحد في بداخله واحد تاني، هيدا مش حنّا، هيدا حنّا تاني، زوجي غير شكل».

وكان الأولاد يستمعون إليها ولا يفهمون الفرق بين الأوّل والثّاني. بعد هذه الحادثة بثلاثين سنة كان سلمان، الابن البكر

لحنّا، ينام مع صديقته لميا في فندق صغير على سفح جبل «صنّين».
كان سلمان يعمل موظّفاً في «بنك بيروت» ويشعر أنّ حياته تبدأ من جديد. خطّة هجرته إلى كندا لم تنجح، لكنّه الآن يتاجر بالعملات الأجنبيّة ويجني ثروات طائلة من تلاعب سعر صرفِ الدّولار في أسواق بيروت. سلمان ولميا في الغرفة بعد أن شربا عرقاً وأكلا لحماً مشويّاً. لميا تراجعت كأنّها لا تريد، مع أنها كانت تريد. هكذا كانت طريقة النّساء في تلك الأيّام الغابرة، أن يدّعين بأنّهنّ لا يردن حين تستيقظ الرّغبة في عيونهنّ. فجأة أمسكها سلمان من عنقها، ورمى بها على السّرير واغتصبها. نام معها دون أن تفارق يده عنقها. خافت لميا كثيراً. وعندما همد، وانقلب عنها وبدأ يخلع ثيابه، سمع صوت بكائها. قال لها «هيدا مش أنا، ما تبكي الله يخليك، هيدا واحد تاني». ركع سلمان أمام حافة السّرير عارياً وطلب منها أن تسامحه لأنّه لم يكن هو، ووعدها أن يصير هو دائماً. وفى سلمان بوعده وتزوّج لميا، ولم يحاول خنقها ولا مرّة، ولكنّها عندما كانت ترفض رغبته بعد نهار طويل من العمل المنزلي، وتكره رائحة الويسكي التي تفوح من فمه، كانت تذكّره بغرفة «صنين»، وتقول له «أنت مش أنت، حلّ عنّي»، فيتركها وينام حزيناً.

زوجة حنّا لم تندم على ما قالته. فهي مرّت في ثلاث مراحل. في المرحلة الأولى لم تصدّق، وفي المرحلة الثّانية لم تصدّق أنّها صدّقت، وفي المرحلة الثّالثة قرّرت أن تنسى حنّا، وتخرجه من حياتها.

عندما خرج حنّا من السّجن وعاد إلى بيته، مع تلك الحراشف المالحة التي تغطّي جسمه، بكت سامية. قالت إنّها لم تكن تزوره خوفاً من كلام النّاس.

«خفتِ»، تمتم حنّا بصوت منخفض.

«خفت منك»، جاوبت «ما بعرف شو صارلي، كلّهم خوّفوني، وأنا يا حسرا شو فيّي أعمل».

نظر إليها حنّا بعينيه الجاحظتين كأنّه لا يعرفها. وعندما ضاجعها في تلك اللّيلة أحسّ أنّه يودّعها ويودّع عالمه القديم، وأحسّ بالسّبات، جاء السّبات ولم يعد حنّا يشعر أنّ هذه المرأة زوجته، وصارت حياته ملكه.

«بسّ قدّام الموت، بتصير حياتك ملكك».

قال حنّا لنورما عندما جاءت لزيارته في المرّة الأولى.

الحكاية هي نورما.

وحكاية نورما في السّجن لا تشبه حكايتها خارجه. في الخارج كانت نورما جزءاً من ذلك العالم الغامض الّذي يتشكّل خلف عيني جدّتها المغمضتين، منذ زمن لا بداية له. أمّ عيسى الّتي تلبس ذلك الأسود الطّويل، وتجلس في طرف الغرفة، وتروي الحكايات، كانت عمياء. نورما لا تذكر جدّتها إلاّ عمياء، ترفع حاجبيها إلى الأعلى، كأنّ الحاجبين تحوّلا إلى موجّه للرّؤية بدل العينين، وتروي. وحكايتها المفضّلة كانت عن قرابة عيسى لفالح. فالجدّة تزوّجت أربع مرّات، ونبيهة هي صغرى أولادها من زوجها الأخير أبو فالح، الذي مات بعد زواجهما بأربع سنوات. جاءت مع الطّفلة إلى بيروت، عملت خادمة في منزل آل العرموني، قبل أن تنتقل وابنتها للعمل عند آل نصّار. أما عيسى وأولادها العشرة الآخرون فكانت لا تعرف عنهم شيئاً، سوى ما ينقله الأستاذ حاتم، زوج نبيهة، من

أخبارهم، عندما يأتي إلى بيروت لتمضية العطلة الصّيفية مع زوجته وأولاده.

لم يكن الأستاذ حاتم يصرف على البيت قرشاً واحداً. يأتي، هو وابنه وكأنّهما ضيفان، ويذهبان في الخريف كضيفين.

عندما قرّر الأستاذ حاتم أن يأخذ ابنه معه إلى السّويداء، كادت نبيهة تموت.

«منروح كلّنا معك»، قالت له.

«مستحيل»، جاوب الأستاذ حاتم.

كان الأستاذ حاتم عبد المسيح يعمل مدرّساً للغّة العربيّة في الصفوف الابتدائيّة في مدرسة «خالد بن الوليد» الرّسميّة، في مدينة السّويداء، عاصمة جبل العرب أو جبل الدّروز، في سوريا. وكان لا يتكلّم مع زوجته وأولاده إلاّ باللّغة العربيّة الفصحى، ونبيهة كانت تستمع إلى كلامه الجميل ولا تفهم الكثير منه. ما تفهمه كان يكفي لتعرف أنواع الطّعام التي يحبّ، وطلباته الّتي لا تنتهي لشرب القهوة التّركيّة.

«كيف تعيشون هناك»؟

«منعيش معك، منروح كلّنا ومنعيش معك».

«والعمل».

«يقطع أبو هالشغل، ما أنا صانعة، ولو يا رجّال، أنت تاج راسنا».

«لا، تبقين هنا، وتعملين».

«متل ما بتريد بصير، بس حرام عليك».

الأستاذ حاتم أصرّ على هذا الحرام فبقيت نبيهة وبناتها الأربع، وذهب مع الابن الوحيد أنطون إلى هناك.

ونبيهة لم تكن تصرف على بيتها فقط، بل كانت تعطي زوجها المال. وعندما يسافر في نهاية الصّيف إلى «حوران» كانت تعطيه كلّ شيء. مربّى، حلاوة، قاورما، وبعض المال. وهو يأخذ ولا يسأل، وكأنّها تقوم بواجباتها نحوه. وأخبرته أنّها قرّرت أن تشتري قطعة أرض في «حيّ البدوي». كي تبني عليها بيتاً.

«وبالآخر، يا أستاذ حاتم»، كانت لا تنادي زوجها باسمه المجرّد، بل تضع قبله كلمة أستاذ للتّدليل على احترامها الشّديد له.

«وبالآخر يا أستاذ حاتم، انت بتكون صرت بالتّقاعد، منزوّج أنطون والبنات، ومنسكن أنا وايّاك بالبيت يلّلي بدّي أبنيه».

من أين استطاعت نبيهة توفير المال من أجل شراء الأرض وبناء البيت. الأستاذ حاتم لم يسألها كيف اشترت الأرض. هل صحيح أنّ الخواجة متري شبّوع أعطاها قطعة الأرض مقابل لا أحد يعلم ماذا؟ الأستاذ حاتم لم يكن معنيّاً بهذه الأسئلة، كان يثق بزوجته، ويثق بعملها، ولا يسألها شيئاً. ونبيهة لم تكن تشعر أنّ هذا الرّجل زوجها. كانت معه كالغريبة، تخجل منه، وتخاف نظراته. الجدّة كانت تقول لابنتها إنّ الحال هكذا أفضل.

«الرّجال مرّة بالسّنة يا بنتي، والباقي تكرار بلا طعمة».

تحكي عن الرّجال وتضع يدها على فمها وتتثاءب. كانت تتثاءب دائماً عندما تحكي عن الرّجال وكأنّ ذكريات الرّغبة كانت تأتيها على شكل تثاؤب طويل تنهيه بشَبْكِ يديها فوق رأسها والسّكوت.

إبراهيم أحبّ في «ستّي أمّ عيسى»، حكاياتها التي لا ينساها ورائحة القمح الّتي يعبق بها ثوبها الأسود. كان إبراهيم عند زياراته «لخالتي نبيهة» لا يلعب مع بناتها في حوش بيتهم، بل يجلس على الأرض إلى جانب أمّ عيسى، ويستمع إلى حكاياتها. وكانت الحكاية تبدأ بسؤال لا يتغيّر.

«دخلك يا ابني، عيسى شو بيقربو لفالح»؟

«شو بيعرّفني»، يجاوب إبراهيم الطّفل.

«قول أخوه، أخوه لا من أمّه ولا من أبوه». وتتثاءب وتبدأ برواية الحكاية. وكان إبراهيم يحبّ حكاية «نصف ديك»، بشكل خاص. يطلب من أمّ عيسى أن تخبره حكاية «نصف ديك» الّذي ابتلع كلّ اللّيرات الذّهبيّة، وأطفأ النّار بإخراج نهر من قفاه، ومات مختنقاً.

عاشت نبيهة مع أمّها وبناتها الأربع في كوخ قرب الكنيسة، وكان الكوخ عبارة عن غرفة ومطبخ وحمّام صغير. مرّة جاء إبراهيم لزيارتهم كي يستمع إلى الحكايات. كان في الثّامنة، وكانت «خالتي نبيهة» وحدها في البيت مع أمّها. الخالة في المطبخ تتحمّم، والجدّة تجلس في زاويتها، وتحصي «ملوك الظّلام»، كما كانت تسمّيهم. العمى هو اقتراب من ملوك الظّلام، قبل أن يأتي الموت ومعه النّور الأزليّ، كما كانت أمّ عيسى تؤمن.

«تعا، قعود حدّي وعدّهم».

«ونصف ديك»، سألها إبراهيم وهو يقترب ويجلس إلى جانبها. «بدّي تخبّريني حكاية نصف ديك».

«عدّهم بالأوّل، وبعدين نصف ديك».

وبدأت تعدّ وهو يعدّ من ورائها أسماء لم يستطع أن يحفظها يوماً. سمع نبيهة تدعوه إلى المطبخ ليعطيها طنجرة الماء. دخل إلى المطبخ ورأى ذلك الجسد الّذي انطبع في مخيلته إلى الأبد.

روى للحلبيّة بعد أن ضاجعها وسمع حكايتها أنّه لن ينسى تلك الصّورة الّتي لا تمحى. صورة امرأة جالسة على طبليّة الاستحمام، ترتجف من البرد، وتستحثّه على أن يناولها طنجرة الماء السّاخن، وهو يتلفّت ويسترق النّظرات إلى جسمها. يحمل الطّنجرة عن بابور الكاز ويقترب من المرأة. الطّنجرة تكاد تسقط على الأرض، والطّفل يستمع إلى ارتجافة أسنان المرأة البردانة، والمرأة تلفّ يديها حول ثدييها، ثمّ تمدّ يدها فينطلق الثّدي الأيمن منتصباً متلألئاً بالماء. تأخذ الطّنجرة، تدلقها في طشت كبير، تمسك بالطّاسة، ويتساقط الماء على شعرها وجسمها المتكوّر فوق الطبليّة. وإبراهيم واقف لا يتحرّك. تنظر إليه من خلال الماء المنساب فوق عينيها.

«شكراً يا ابني».

تأخذ الصّابونة وتفرك شعرها. تغمض عينيها. يرى الصّابون فوق الشّعر الأسود، وهو يتحوّل فقاعات صغيرة.

«شو بعدك هون، يلّله روح العب».

خرج إبراهيم من المطبخ وهو يرتجف. كأنّه اكتشف أسرار العالم. كانت نبيهة في الخامسة والثّلاثين، بيضاء، تجلس بجسدها المتكوّر على طبليّة الاستحمام. كلّ شيء فيها كان مدوّراً وأبيض. شعرها الطّويل ينحدر ويغطّي ظهرها، فخذاها مضمومتان، والرّكبتان كأنّهما ملتصقتان، والماء السّاخن يتساقط على الجسد، والبخار يلفّ كلّ شيء.

«كانت المرأة، وعندما تكون المرأة يكون الجمال». قال للحلبيّة، فنظرت إليه بلامبالاة.

«يعني هي أحلى منّي».

«أنا ما قلت هيك، هي كانت أوّل واحدة».

«المهمّ يا حبيبي آخر واحدة. دايماً الواحد بيفكّر أنّه أوّل واحدة هي أهمّ شي، بس آخر واحدة هي الموضوع كلّه، آخر حبّ متل التّين الأبيض، عسل وبدوب، وبخلّلي الواحد ياكل حتى يموت».

لم يوافق إبراهيم. فهو لا يحبّ التّين الأبيض إلى درجة أن يأكل منه حتّى يموت. الخالة نبيهة كانت تحبّ التّين كثيراً. في نهاية كلّ أيلول كان إبراهيم يذهب إلى بيتها ليتفرّج على صناعة مربّى التّين، الّذي يتحوّل إلى الغذاء الشّتوي الأساسي لها ولبناتها الأربع، وللأستاذ حاتم وابنه. تعوّدت نورما وشقيقاتها أن يطلقن على أخيهنّ الوحيد أنطون اسم ابنه. كنّ ينادينه «أبو حاتم». يضعن مربّى التّين في أوعية صغيرة، ويخصصن أنطون بوعاء فخّاريّ كبير، كي تدفأ عظامه في شتاء «السّويداء» القارس. وعندما مات أنطون مات الأستاذ حاتم أيضاً، ولم يعد الأب أباً. لم يتوقّف الأستاذ عن المجيء صيفاً إلى بيروت، بعد غرق ابنه وموته، لكنّ الخالة نبيهة لم تعد تخجل منه، صار مثل أثاث المنزل، يجلس في المكان الّذي كانت تجلس فيه أمّ عيسى قبل أن تموت، لا يزور ولا يُزار. الموضوع الوحيد الّذي كان يشغله هو اقتراب موعد إحالته على التّقاعد، وانتقاله النّهائي للإقامة معهم في بيروت. ويسكت. صار اسمه الرّجل السّاكت. لم يسأل كيف استطاعت زوجته أن تبني البيت على هذه الأرض المستطيلة التي اشترتها من الخواجة متري شبّوع،

ولا لماذا بقيت حياتهم في البيت الجديد كما كانت في الكوخ. كانوا ينامون جميعاً على فراش يُوضع أرضاً في غرفة واحدة. الصّالون لا يدخله أحد على الإطلاق إلاّ يوم عيد الميلاد المجيد، حين تفتحه الخالة نبيهة للزوّار، وتقفل بابه بعد انتهاء يوم العيد بالمفتاح. غرفة النّوم الثّانية أسمتها غرفة الاستقبال، وهي مخصّصة للزوّار وللزوّار فقط. حتّى السّرير النّحاسيّ الأصفر الكبير أبقت عليه ووضعته في غرفة الاستقبال، وكانت تنتقل لتنام فيه خلال أشهر الصّيف حين يأتي زوجها إلى بيروت. كانت العائلة تعيش في البيت الجديد وكأنّها ماتزال في الكوخ القديم، لكنّ الفرق أنّ الأستاذ حاتم لم يعد ينتظر نوم الأولاد كي يضاجع زوجته على السّرير النّحاسي. صارت نبيهة تترك زوجها في غرفة البنات، وتنام وحدها فوق السّرير.

عاش الأستاذ حاتم حياة لا طعم لها، ولم يكن يخاف إلاَّ من فقدان الذّاكرة. عندما أتى من «السّويداء» لأن أمّ عيسى كانت تحتضر، جلس إلى جانب المرأة الكهلة، وحاول أن يكلّمها، فاكتشف أنّها لم تتعرّف إليه. أخبرته نبيهة أنّها فقدت ذاكرتها منذ ثلاثة أشهر، ولم تعد تعرف أحداً.

«الذّاكرة بير»، قالت نورما لإبراهيم، «كل حياتنا ما منعمل شي، بس منغرق فيه، وبالآخر مننسى كلّ شي».

كان إبراهيم يعجب من قدرة نورما على الكلام الكبير.

«ليش بدّك تهاجر، الهجرة بير».

«باخدك معي، منروح ومنتزوّج ومنجيب أولاد».

«ولاد، لشو الولاد، هلّق خلّينا نتزوّج، بس أنت جبان، أنت بقلب البيرِ».

«شو هالحكي».

«بيّي هيك كان يحكي، كان يقعد مطرح ستّي، ويحكي لوحده، مسكين ما كان حدا يحبّه، وكان يخاف يخرف، كلّ ما ينسى اسم حدا يصفن وما يعود يقدر يحكي، وبالآخر يا مسكين خرف ونسي شو كان اسمه، وصار يحكي طالع نازل، دخيل اسمك يا الله كيف بصير الإنسان بالآخر».

«الله يرحمه»، قال إبراهيم.

«الله يرحمنا كلّنا، مسكين ما كان حدا يفهم عليه، بعدين راح، وأمّي رجعت على بلادها، وأنا بقيت لوحدي».

بقيت نورما وحدها تحرس البيت الصّغير المستطيل الّذي بنته أمّها. وعندما بدأت الحرب الأهليّة هرب كثيرون من بيروت، كلّ من استطاع هرب، ونورما بقيت. وفي الحرب لم تعد تفهم. توقّف إبراهيم نصّار عن حديث الهجرة. قالت له إنّ السّفارة الكنديّة تعطي تأشيرات هجرة للمسيحيّين، «خلّينا نهرب». وهو يقول لها «بعدين، الحرب مارح تطول». لكنّه كان يحضّر للسّفر بشكل سرّي، كما أخبرها حنّا، وهذا هو سبب موت عمّته اختناقاً.

«هو خنقها؟» سألت نورما بصوت خائف ومتهدّج.

«ما بعرف»، قال حنّا. «بعرف أنّه الحكيم قال إنّها اختنقت، هو خنقها أو هي اختنقت من القهر، مابعرف».

ماتت العمّة اختناقاً، وإبراهيم مشى خلف النّعش مترنّحاً، ونورما مشت إلى جانبه تسند ذراعه.

ولكن لماذا بقيت نورما؟ بقيت من أجل حراسة البيت كما تدّعي؟ أم من أجل أن تعرف كما اعتقدت أمّها؟ أم من أجل إبراهيم كما قال سكّان حيّ «الفرنيني»؟ لا أحد يعرف.

نورما لم تقل شيئاً. ولكن ماذا لو حكت نورما؟

لو حكت نورما فكيف كانت ستروي حكاية هذه العلاقة المزدوجة الّتي أقامتها مع رجلين.

لا تستطيع نورما أن تقول إنّ حنّا السّلمان المالح كان يكذب حين روى للجميع علاقته بها. فجريمة السّجن، تثبت أنّ كل ما رُوي عن هذه العلاقة كان صحيحاً. كما أنّ نورما لا تستطيع أن تنفي أنّها كانت تريد إبراهيم، وأنّها حاولت المستحيل كي تدفعه للزّواج منها.

لو حكت نورما لقالت إنّها كانت عاشقة. لم تعشق إبراهيم بل عشقت المكان. عشقت ذلك الشّارع المتعرّج الذي اسمه «حيّ الفرنيني» في بيروت، ورأت بعينيها الصّغيرتين اللاّمعتين عالماً أرادت أن تنتمي إليه. لكنّها فشلت. هل فشلت نورما؟ وما معنى الفشل؟ نورما لم تفكّر يوماً أنّها فشلت، لكنّها كانت تخاف. أحبّت إبراهيم وخافت من حنّا. كانت تشعر أنّ حنّا نجح في السّيطرة عليها. نامت معه مرّة، هكذا، أغواها فقبلت، واعتقدت أنّ المسألة انتهت. لكنّ المسألة لم تنتهِ. افترسها الرّعب وصارت كالدجاجة أمام هذا الرّجل. لم تكن تبكي من اللّذّة، بل من الخوف. وكانت تهرب من رائحة الجنس الملطّخة إلى أحضان إبراهيم كي تستعيد شعورها بأنّها امرأة.

لو حكت نورما لقالت إنّها كانت تخاف. لكن نورما لم تحكِ. لم

تُخْبِر عن جدّتها وثوبها الأسود الطّويل الّذي كان يغطّيها في مناماتها، فتنهض وهي تصرخ. لم تُخْبِر عن حنّا الّذي كان يضربها ويهدّدها.

كانت عيناها صغيرتين. إبراهيم سوف يصف عينيها بأنّهما كبيرتان، وهذا خطأ. انطباع إبراهيم ناجم عن ذلك الماء الّذي كان يلتمع في عيني الفتاة، وهي تنظر وكأنّها تريد أن تضمّ الدّنيا بعينيها.

لو حكت نورما لقالت شيئاً من هذا. ولقالت إنّها جاءت إلى بيروت ولا تريد العودة إلى هناك، وأنّها أرادت أن تبدأ، أن تحكي مثل أهل بيروت، وتصير واحدة منهم.

هل كانت نورما تكذب؟

هل نعرف السرّ حين نستمع إلى الكلام؟

هل الكلام يخبر أم يخفي؟

لا أحد يدري. لن نعرف إذا كانت نورما في علاقتها بالرّجلين تعبّر عن خوفها أم عن انحدارها إلى منطقة عدم الارتواء. إلى المكان الّذي يصبح فيه الجنس عطشاً إلى الجنس لا يروى، وتصبح فيه الحياة كتلة متشابكة من الخيطان.

بدأت الحكاية هكذا.

في ذلك الزّمان جاءت نورما إلى حبس الرّمل. كانت في الثّالثة والعشرين، حنطيّة اللّون، كبيرة النّهدين، في عينيها ماء يشبه دموعاً تكاد تسقط. تنتعل سكربينة سوداء بكعب عالٍ كي تبدو أطول من قامتها قليلاً، وتلبس فستاناً أصفر، وتحمل جزداناً أسود.

في ذلك الزّمان جاءت نورما إلى الحبس، وطلبت مقابلة حنّا السّلمان. حصل هذا بعد صدور حكم الإعدام بأسبوع، وكانت نورما تعلم أن لا أحد يأتي لزيارة حنّا. كانت تريد أن تفهم لماذا ارتكب حنّا هذه الجرائم. كانت نورما هكذا، تحبّ أن تفهم الأشياء، ولذلك قالت لأمّها إنّها لن تذهب معها إلى سوريا، وأنّها تريد أن تبقى في البيت لتحرسه.

جاءت نورما إلى الحبس، وكان حنّا قد انتقل إلى غرفته الجديدة مع السّجينين أحمد العتر ومنير سلوان. وفي السّجن، وبسبب نورما، حدثت الجريمة. مدير السّجن كان قد أصدر أوامره بالتّسامح مع حنّا لأنّه سيموت، وسمح له بزيارات خاصّة. والزّيارات الخاصّة لم تكن تطبّق إلاّ على نورما، لأنّها الوحيدة التي أتت لزيارته. سمحوا لها بدخول السّجن، ولم يعاملوها كباقي أهل المساجين الّذين خصّصت لهم قاعة كبيرة يفصلها في وسطها حائط من الحديد والشّبك، ويجتمع فيها العشرات من الجانبين وهم يتصايحون ويتبادلون كلمات غير مفهومة. نورما سمح لها بالوصول إلى داخل

السّجن، وكان السّجناء الثّلاثة يستمعون إلى وقع حذائها النّسائي ذي الكعب العالي على الأرض، فيعلمون أنّها جاءت. حنّا يخرج لمقابلتها، والسّجينان يحاولان استراق النّظر من شقّ الباب قبل أن يغلقه أبو أحمد.

في اللّقاء الأوّل خرج حنّا غير مبال. كان قد قرّر عدم استقبال أحد. فالصّداقة والزّواج والأبوّة والبنوّة صارت كلمات فارغة لا معنى لها. حتّى شقيقه صموئيل، الّذي أنقذه من حبل المشنقة، لم يأتِ لزيارته.

عندما قال له أبو أحمد إنّ هناك فتاة تدعى نورما تريد زيارته، قال إنّه لا يريد. ثمّ فجأة غيّر رأيه. لم يكن حنّا يملك حكايات تشبه حكايات السّجينين اللّذين يعيشان معه، فقرّر أن نورما هي حكايته. أخبراه عن عالم التّهريب، والرّيّس سامي. وحنّا يستمع إلى هذه الحكايات وكأنّه يكتشف العالم من أوّله. اكتشف حنّا أوّل العالم عندما كان على مشارف النّهاية. حبل المشنقة يتدلّى أمامه، والملح يغطّي جسمه، وعيناه تؤلمانه بقروح نبتت فوق الحاجبين.

قالت نورما إنّها لم تعرفه حين خرج لمقابلتها. في المحكمة لم تره جيّداً. كان محاطاً بالحرس والبقع البيضاء تحجب وجهه. في الحبس رأته وخافت. قالت نورما إنّها خافت في السّجن، كما خافت في المرّة الأولى. روت لإبراهيم نصّار وهي تتلعثم.

«ليش رحتِ»، سألها إبراهيم.

«ولو، حرام، مش صديقي وصديقك».

كان كالخارج من القبر، قالت. «متل شي شبح، كيف بدّي قلّك، كان كأنّه صار أطول وأعرض، جسمه منفوخ، وجهه مبقّع بدوّيرات

بيضا كأنّه جربان، بحطّ ظهره على الحيط وبيصير يحكّ، وعيونه ورمانة مدري كيف، وما حكي شي».

«سألتيه إذا خايف من الموت»؟ قال إبراهيم.

«أنا ما بخاف» جاوبها حنّا. «شو يعني الخوف. لو جيتي وشفتيني عم آكل كيلو ملح، كنتِ فهمتِ إنه الموت أهون».

وضعت نورما يدها على يده فشعرت أنّها تمسك سمكة مليئة بالحراشف. سحبت يدها بسرعة.

«لازم تنسى هالأشياء يا حنّا».

«بكرا بنسى، لاحق على النسيان، بكرا بموت وبنسى كل شي، وأنتِ كمان بتنسي، وكلّه بروح فرق عملة، وما بضلّ شي».

وضع يده على يدها فلم تسحبها. شعرت بمزيج من الدّفء والقشعريرة، وأرادت أن تبكي، لكنّها تمالكت نفسها.

في اللّقاء الأوّل كان حنّا مختلفاً. دخل خجولاً، وهو يكاد يتعثّر بقدميه. كأنّ تردّده ورفضه مقابلتها، كانا بسبب خجله من نفسه. دخل وهو يتلفّت أرضاً وكأنّه يبحث عن شيء أضاعه.

«كيفك»؟

«منيح، يعني متل منك شايفي».

اقتربت من الطّاولة الموضوعة في وسط الغرفة كي تفصل بين السّجين وزائرته. وكان الشّرطيّ الأعرج يقف قرب الباب ويراقبهما. أمسكت بيديه الاثنتين.

«جبتلك كروس دخّان أميركاني».

«شكراً، بس هون عم يعطوني كلّ شي من وقت ما حكموا عليّي بالإعدام وكلّ شيء تغيّر، أحلى شي الواحد ينحكم إعدام، بصيروا

يحبّوه، النّاس ما بتحبّ إلاّ الموتى، بكرا بس موت مرتي وأولادي بيرجعوا يحبُّوني، وأنتِ كمان».

«ما تحكي هيك».

«شو بدّك قول»؟

«قلّلي، ليش عملت هيك».

«شو عملت؟».

«بتعرف».

«أنتِ بتعرفي، أنا ما بعرف».

«طيّب بدّك شي؟»

«أيوه، بدّي».

«شو»؟

«بدّي قلّك، إذا بقلّك بتصدّقي».

«بصدّق».

«لا، مش رح تصدّقي، لشو قول، بعدين شو بدّي قول، هيك أحسن، عالقليلة هيك في سبب للموت. مش حلو الواحد يموت من دون سبب. كلّ النّاس بيموتوا من دون سبب، هيدول كلاب. الإنسان بلا سبب بصير كلب».

«طيّب، طيّب، بلا فلسفة، بدّك شي، أنا صار لازم فلّ».

«أيمتى بترجعي لعندي».

«بدّك زورك».

«أي، بدّي».

«طيّب ليش بالأوّل ما قبلت تشوفني؟»

«ما بعرف».

«إذا جيت بكرا بتستقبلني؟»

هزّ رأسه إلى الأسفل.

«بجبلك كنافة بجبن».

هزّ رأسه إلى الأسفل.

«على فوقا، تطلّع فيّي، ليش راسك بالأرض».

رفع عينيه إليها، ومدّ يديه فوق الطّاولة إلى خصرها فشعرت نورما بالوجع في قلبها.

تراجعت إلى الوراء، بقيت يدا حنّا معلّقتين في الفراغ، أنزل يديه، وبدأ يحكّ ظهره بالحائط والقشور البيضاء تتساقط على الأرض.

«شو هيدا».

«ما شي، هيدا ملح، جسمي مملّح».

«بجبلك دوا».

«ما في دوا، قلّلي الحكيم هيدا من آثار وليمة الملح، وبدّو سنة وبيروح. هيك بروح أنا وايّاه».

«ما تحكي هيك».

دمعت عيناها، سحبت محرمتها البيضاء من جزدانها، ومسحت خدّها.

«على فوقا، جبتلّك كتاب».

«أنا ما بقرا كتب».

«هيدا مش متل الكتب، مبارح شفت الأبونا سرجيوس، وقلتلّله بدّي زورك، قال الله يهديك، وقال إنّه، بتعرف هو كيف بصير يحكي بالعربي الفصيح، قال إنّه مستعدّ، المسيح جاء من أجل الخطاة

والعطاش إلى البرّ، إذا أراد أن يعترف، فأنا مستعدّ أن أزوره».

لم يجاوب حنّا.

«شو بقلّله»، سألت نورما.

«بعد في خطايا بدّي أعملها، وبعدين بعترف».

«بس ما في وقت كتير».

«مين بيعرف، سألت مدير الحبس السّيد شمع، قال ما بيعرف أيمتى، جاوبت متل ما بيحكي الأبونا سرجيوس، لا أحد يعلم السّاعة، فقال شي بفتكر إنّه من القرآن ﴿ولا تدري نفس بأيّ أرضٍ تموت﴾. قلت أنا بعرف. بساحة العدليّة، والنّاس رح يجوا يتفرّجوا، وأنا بصير بلعط، والنّسوان تزلغط».

«شو هالحكي؟»

«الشّابّين يللّي معي خبّروني».

«معك شابّين»

«شابّين بيشتغلوا بتجارة الحشيش، فهمانين وبيعجبوا خاطرك، خبّروني انّه عم بيزيّنوا السّوق».

«أي سوق»؟

«سوق الأوادم، سوق الشراميط، وانّو الشّراميط أخدوا إذن خاصّ تيجوا ويتفرّجوا على إعدامي، وانّه رح يزلغطوا ويوزّعوا ملبّس ومعمول وحلويات عربيّة وفرنجيّة، وإنتِ مش رح تجي».

«ما بعرف».

«كذّابة، انتِ كمان رح تجي ورح تزلغطي، وتاكلي ملبّس، وترقصي، ومرتي كمان، شو بعرّفني، ويمكن مرتي ترقص، أنتو كلّكن شراميط».

برمت نورما كأنّها ستذهب.

«لوين رايحة، زعلتِ؟»

«ما زعلت، بدّي ابكي».

«تبكي! لا انت ما بتبكي إلاّ إذا عملتلّك واحد. أنا هلّق ما فيّي اخدمك، دخلك كيف إبراهيم؟»

«شو بدّك بإبراهيم. نسَّيتني. قلّلي الأبونا سرجيوس، أعطيك هالكتاب».

«ما بدّي اقرا».

«ولك خود، هيدا الكتاب المقدّس، الأبونا علَّم الصفحة، قال إنّك لازم تقرا عن مار الياس، ما في إلاّ مار الياس يمكن يخلّصك».

«كيف بدّو يخلّصني، قدّمنا طلب عفو وانرفض، قامت الدّنيا وقعدت. في واحد جرنلجي كتب مقال طويل عريض، إنّه لازم انعدم».

سحب حنّا جريدة من جيب بنطلونه الخلفي وبدأ يقرأ: «هذا المجرم المدعو حنّا السّلمان يجب أن يعلّق بحبل المشنقة، يجب أن يراه كلّ الشّعب ميتاً. قتل بلا رحمة، قطّع الجثث ووضعها في أكياس. كان ينام مع المومسات البريئات ثمّ يأخذهنّ إلى الموت، هذا الضّبع يجب أن يموت. حنّا السّلمان ليس رجلاً، إنّه ضبع...».

«رح اعفيك من بقيّة المقال لأنّه تكرار»، قال حنّا وهو يطوي الجريدة، ويعيدها إلى جيب بنطلونه، «شو هالجرنلجيّة الحمير، بضلّوا يعيدوا نفس الجملة. عندهم شويّة كلمات بخضّوها وبيفرشوها على الورق. قال أنا ضبع. شو في يعمللّي مار الياس».

وضعت نورما الكتاب على الطّاولة. «بكرا برجع بزورك وبجبلك كنافة».

«نورما».

«شو».

«ما بتخافي تجي».

ابتسم حنّا، فظهرت أسنانه المكسورة.

«شو بهم أسنانك؟»

«ما شي، الشّباب توصّوا فينا، وضلّوا يضربوني على تمّي، حتّى ما عاد فيّي آكل إلاّ ملح».

غادرت نورما. الحارس الأعرج يشير إلى حنّا بالعودة إلى زنزانته. حنّا يحمل الكتاب ويعود.

هذا المشهد سوف يتكرّر كثيراً. لكن نورما، وابتداء من المرّة الثّانية، لن تشعر بالخوف من حنّا. قالت إنّها دجّنت حيواناً برّيّاً.

«متل الحيوان البرّي يلّلي بصير داجن، العمى قديش صار مخلص، صار متل الكلب، الإنسان بصير كلب لمن ما بعود في عنده شي غير الإخلاص».

«ولشو عم تزوري».

«بشفق عليه، الشّفقة شي فظيع»، جاوبت إبراهيم، «الشفقة متل الحليب تبع الأمّهات، يا ريت بتزوّج وبيطلع الحليب من صدري».

«أنا أتزوّجك»، قال إبراهيم.

«أيمتى».

«بكرا، بعد الإعدام».

«عيب نتزوّج، والزلمة جارنا عم ينعدم».

«بكرا، بعد الإعدام منتزوّج، ومنعمل حفلة، ومنجيب ملبّس ومعمول، وبتصير عمّتي سارة تزلغط، وبصيروا كلّ النّسوان يزلغطوا».

«هيك قلّلي».

«مين».

«هو، حنّا قلّلي إنّه بالإعدام رح يجوا كلّهم، ويصيروا يرشّوا ملبّس ويزلغطوا، بس ليش عمل هيك، ما بعرف».

«ما بتخافي منه؟»

«لا، قلتبلّك، صار متل الكلب».

بعد كلّ زيارة كان حنّا يعود إلى غرفة السّجن مختلفاً، ويخترع القصص عن نورما، والغرفة تكبر. صارت الزنزانة بحجم العالم، فيها يتمّ استحضار الجميع، والحوار معهم، وفيها تجري المشاحنات الّتي تكاد تتحوّل إلى جرائم.

يذكر حنّا صوت أبو أحمد.

كان أبو أحمد رئيس القواويش يصرخ مثل ثور «زيارات». يخرج صوته من أسفل بطنه، ويسمع السّجناء الثّلاثة حركة الزّيارات، وجلبة السّجناء وهم يتراكضون إلى القاعة الكبيرة. ويبقى حنّا جالساً يدخّن. ينظر إليه أحمد العتر ومنير سلوان بحقد. ينفخ سيكارته في الهواء.

«وأنتم»، يسأل حنّا.

«شو بدّك فينا»، يجاوب أحمد.

«وين الزوّار، العمى، ما حدا بيزوركم».
«الرّيس قال ممنوع الزّيارات، ونحن منفّذ الأوامر»، قال أحمد.
حنّا ينظر باتّجاه منير، «وأنت ليش ما بتحكي».
منير يتكلّم بصوت منخفض، ويُغْفِي قليلاً.
«أنا متل ما قال السيّد أحمد، الرّيس قال بلا زيارات. بس هلّق رح نسمع صوت أبو أحمد عم يندهلك، وكعب سكربينة المحروسة، شو اسمها؟»
«اسمها نورما»
«عاشت الأسامي»، قال منير، «هي صاحبتك؟»
«خطيبتي، شو صاحبتي هاي، شو هالحكي، خطيبتي ورح أتزوّجها.
«شو هالتفنيض»، قال منير، «ما انت مزوّج وعندك ولاد، انت خبّرتنا عن مرتك، وكيف صدّقت، وكيف كلّ النّاس صدّقوا، وكيف كل شي كذب».
«طبعاً كذب»، قال حنّا.
«يعني مزوّج».
«لا».
«يعني مش مزوّج».
«شو بدّك بهاالقصّة».
«يعني ما قتلت، وما كنت تنشر الجثث!» قال منير.
«مش مهمّ شو كنت، المهمّ هلّق، وهلّق بقتل، والله العظيم طالع على بالي أقتل، بتعرف خيّي منير، انت بتعجبني».
«والشّراميط، قتلت شراميط، مزبوط». قال منير.

«أيوه مزبوط، بس انت».

حنّا يقترب من منير، أشياء بيضاء تتساقط من قميصه، منير ينظر إليه بتقزّز ويتراجع إلى الخلف، مستنداً إلى الحائط.

منير يصرخ، «ما تقرّب، شو بدّك؟»

«أنت بتعرف، ما بتعرف»، قال حنّا بصوت خافت.

«أوعا». منير ينظر باتّجاه أحمد العتر، أحمد يضحك بصوت مرتفع ويجلس على طرف السّرير، حنّا يضع يديه على الحائط حيث يقف منير، رأس منير يظهر بين يدي حنّا كأنّه محاصر.

«يا أخو الشّرموطة».

«ما تسبّ»، يصرخ منير.

«اركع».

«شو بدّك».

«بدّي أعمل جريمة، اركع، بدّي مثّل الجريمة».

وصار حنّا يمثِّل.

عندما يلتقي سامي الخوري سوف يقول له الريِّس إنَّ التمثيل ممنوع هنا. «نحن لا نمثِّل يا ابني، نحن نشتغل». وسوف يبتسم حنّا، وتظهر أسنانه الأماميّة المحطّمة، ويقول للريِّس سامي إنَّه لا يحبّ التمثيل، لكنّه كان مضطرّاً لأنّهم أجبروه على تمثيل الجريمة. أخذوه إلى السوق العمومي، وضعوه في غرفة، جلبوا قطعة خشب تشبه امرأة، وطلبوا منه أن ينام معها.

«ونمت»؟ سأل سامي.

«طبعاً نمت»، جاوب حنّا.

كـان حنّـا وسـط المحقِّقيـن والقضـاة والعسكـر والمصـوِّريـن. علـى الأرض قطعة خشبيّة وإلى جانبها منشار وأكياس. وقف حنّا وسط الدائرة وبـدأ يمثِّـل، سقـط علـى الأرض، احتضـن القطعـة الخشبيّة وسمـع لهـاث المحقِّق، واقتنع أنَّه قد يكون المجرم. خرج من داخله شيء كأنّه ظلٌّ كبير أخضر، وصار يقوده، يمسك به من رقبته وحنّا يطيع. رأى الظّلّ يقف، فـوقف وسط اللّون الأخضر الّذي انتشر في الغرفة، هجم على المحقِّقين، أمسك المنشار وبدأت قطع الخشب الصغيرة تتطاير، وضع القطع في الكيس وحمله على ظهره ومشى.

لم يقل حنّا لمنير وأحمد إنَّ الجريمة خضراء. مثَّل أمامهما، دبدب على الأرض، وقف وانبطح، وجعلهما يرتجفان من هول الحكايات التي رواها. رآهما خائفيْن فضحك كثيراً.

لهـث ونـام، ثـمّ نهـض، فـرأى منيـر وأحمـد يمثِّلان همـا أيضـاً، ورأى ظلالهما خضراء.

قال للريِّس سامي إنَّه لم يخطِّط لهذه الجريمة الجديدة. الريِّس سامي لم يصدِّقه، وعامله منذ البداية بوصفه مجرماً محتملاً.

انتهى حنّا من التمثيل، وبدأ دور منير وأحمد.

«الفرق أنَّني كنت أعرف»، قال حنّا لنورما. قال لها إنَّه كان يعرف بأنَّه يمثِّل، بينما لبس منير وأحمد الدور، فحصلت الجريمة.

أنهى حنّا تمثيليّته، انبطح على الأرض ونام، وبدأ بين الرجلين ذلك النقاش الذي انتهى بهما إلى الموت.

صرخ حنّا بمنير أن يركع، ورأى الظلّ الأخضر ينتشر على الحائط.

تـراجـع حنّـا إلـى الخلـف، جلس منير على الأرض متهـالكـاً، أحمـد يجلس على طرف السرير، حنّا يدور على نفسه.

«تفرّجوا، هلق تفرّجوا. قال أنا حنّا. حنّا السّلمان المالح البارودي الكلب ابن الكلب. قلّلي يا ابن الكلب. كنت منفوخ متل البالون، وقللي مثّل، صرت دبدب على الأرض ومثّل (حنّا يدبدب ثمّ يسقط على بطنه) وصرت مثّل. عطيوني منشار وخشب معاكس، قلّلي عبوط الخشبة، عبطتها، قلّلي نام معها، صرت نام مع شقفة الخشب. هنّي كانوا محضّرين كلّ شي، خشبة بتشبه مرا، ومنشار، وكيس جنفيص. صرت نام مع الخشبة. لبطني على ضهري وصرخ، عبطها مزبوط، عبطتها، صرخ ولا خرا هيك بناموا مع النّسوان، نام مزبوط، خلّلينا نحسّ انّك عم بتنام، بس أنا يا سيدنا مش حاسس، وصار يلبط وأنا نام، وبدال ما أنا ألهث صار هو يلهث. ستوب صرخ. التفتّ لقيت وجه الضّابط أحمر متل البندورة، وشفته عم يمسح عرقه بكمّ قميصه وريلتو قاشطا، كأنّه متهيّج، خفت ينيكني، برمت على ظهري.

- شو عم تعمل ولا عكروت.

- عم برتاح.

طلبت منه سيكارة.

- سيكارة، لشو السيكارة.

- بعد هالعملة، لازم ندخّن.

- كنت تدخّن قبل ما تقتلهم؟

- طبعاً يا سيدنا، كنت نام على ضهري، ارفع اجر على اجر ودخّن، وهي تغنّي.

- مين.

- أنطوانيت.

حتّا ينبطح على الأرض، يضع يده اليسرى تحت رأسه كأنّها وسادة، وينام.

منير: قتل ولا عم بمثّل؟

أحمد: ما بعرف، بفتكر قتل ومثّل علينا كلّ الوقت انّه مظلوم وبريء. وهلّق بيّنت الحقيقة. أنا ما بقدر عيش معه ولا لحظة. بكرا بدّي اطلب من أبو أحمد يردّني على القاووش. القاووش أرحم.

منير: حمار

أحمد: مين؟

منير: عم قول إنّك حمار. بكرا رح يعدموه، وبتصير الغرفة إلنا، عنّا خمس سنين بدنا نقضيها.

أحمد: والعفو؟

منير: أي عفو، انت بعدك جديد بالمصلحة، العفو يعني يخفّضوا الحكم من خمس سنين لتلات سنين.

أحمد: بس الرّيّس سامي وعدني بالعفو.

منير: لو في عفو كان عفي عن حاله. ما هو الله يوجّهلو الخير قعد تلات سنين بالحبس بمصر، بعد حادثة الطيّارة.

أحمد: ونورما؟

منير: هو وعدني فيها.

أحمد: شفتها.

منير: لا.

منير يقف، يمشي، يقلّد بفمه صوت كعب حذاء نورما، يصل إليها ويضمّها.

منير: هيدي نورما إلي. أنا حكيت مع مدير الحبس وقلّلي بعد

الإعدام نفس التّسهيلات يلّلي انعطت لحنّا، رح تنعطى إلنا، وحنّا وعدني.

أحمد: وأنا وعدني.

منير: كذب عليك، أنا كتبتلّها مكتوب. قلّلي بالأوّل اكتبلها مكتوب، وقلّلها انّك صديقي، وبعدين بصير تعارف، وبعدين أنا بعد ما انعدم بكون تاركلها أغراض معك، وبعدين بتجي لتاخد الأغراض، وبعدين توكل.

أحمد: وأنا قلّلي نفس الشي، وهيدا المكتوب.

يسحب أحمد رسالة من جيبه، منير يسحب أيضاً رسالة، ويقرآن معاً.

أحمد: العزيزة نورما.

حنّا المالح هذا الصّديق الوفيّ الذي سيغادر الدّنيا. أتمنّى أن تكوني قادرة على تحمّل العذاب. فالحياة عذاب. هل تحبّين فريد الأطرش. فريد الأطرش هو أعظم مطرب...

منير: الآنسة نورما.

اكتب لك كي أبلغك عن أوضاع حنّا، وضرورة أن نلتقي ونبحث أزمته النّفسيّة، فآلام معدته سببها نفسيّ كما أعتقد، وهو يحتاج إلى طبيب...

(لا نفهم شيئاً من النّصين المتداخلين).

هذا المشهد لن يتكرّر، فحنّا لن يعود إلى تمثيل الجريمة، وإقامته في الحبس، في الغرفة الصّغيرة مع العتر وسلوان سوف تستمرّ ثلاثين يوماً. أخذ منهما الرّسالتين ومزّقهما وهو يضحك. ولم يقل لنورما شيئاً عن صديقيه. كان مهووساً بحكاية الملفوف. أقنعه الملفوف أنّه

ضيّع حياته سدى. يحكّ جسمه بشكل دائم ويشعر بالغربة عنه. كان يشعر أنّ جسمه هو جسم رجل آخر. عندها اقتنع بوجود الرّوح ووجود الله. كان حنّا يشعر أنّ روحه تنفصل عن هذا الجسد الّذي تسكنه. الآلام المبرّحة التي يشعر بها لم تعد تعني له شيئاً. كان يترك الآلام لجسده، ويمضي إلى معانقة الرّوح. يتفرّج على جلده المتقرّح وقشوره البيضاء وكأنّه يتفرّج على إنسان آخر. وصار يفتح الكتاب الّذي أرسله له الأبونا سرجيوس، ويقرأ حكاية مار الياس الحيّ.

صباح كلّ يوم يستيقظ السّجينانِ على صوت حنّا وهو يقرأ الكتاب المقدّس. ينهض في الرّابعة صباحاً، يشعل الشّمعة التي يضعها إلى جانب سريره الحديديّ، ويبدأ بالقراءة. يشرب الماء ويقرأ. فهو منذ حادثة الملح لم يعد يستطيع الجلوس في أيّ مكان إلاّ إذا كانت قنينة الماء إلى جانبه.

يجلس حنّا في سريره، يشرب كرعة ماء، ويبدأ بقراءة هذه المقاطع من كتاب «الملوك الثاني».

«وكان عند إصعاد الرّب إيليا في العاصفة إلى السّماء، أنّ ايليا واليشع ذهبا من الجلجال. فقال إيليا لاليشع امكث هنا لأنّ الربّ قد أرسلني إلى بيت إيل. فقال اليشع حيّ هو الربّ وحيّة نفسك إنّي لا أتركك ونزلا إلى بيت إيل. فخرج بنو الأنبياء الّذين في بيت إيل إلى اليشع وقالوا له أتعلم أنّه اليوم يأخذ الربّ سيدك من على رأسك فقال نعم إنّي أعلم فاصمتوا. ثمّ قال له إيليا يا اليشع امكث هنا لأنّ الربّ قد أرسلني إلى أريحا. فتقدّم بنو الأنبياء الّذين في أريحا إلى اليشع وقالوا له أتعلم أنّه اليوم يأخذ الربّ سيدك من على رأسك.

فقال نعم أعلم فاصمتوا. ثمّ قال له إيليا امكث هنا لأنّ الربّ قد أرسلني إلى الأردن. فقال حيّ هو الربّ وحيّة هي نفسك إنّي لا أتركك وانطلقا كلاهما. فذهب خمسون رجلاً من بني الأنبياء ووقفوا قبالتهما من بعيد. ووقف كلاهما بجانب الأردن. وأخذ إيليا رداء ولفّه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبرا كلاهما في اليبس. ولمّا عبرا قال إيليا لاليشع أطلب ماذا أفعل لك قبل أن أؤخذ منك. فقال اليشع ليكن نصيب اثنين من روحك عليّ. فقال صعّبت السّؤال. فإن رأيتني أؤخذ منك يكون لك كذلك وإلاّ فلا يكون. وفيما هما يسيران ويتكلّمان إذا مركبة من نار وخيل من نار فصلت بينهما فصعد إيليا في العاصفة إلى السّماء. وكان اليشع يرى وهو يصرخ يا أبي يا أبي مركبة إسرائيل وفرسانها».

يستيقظ السجينان على صوت حنّا، لكنّهما يدّعيان النوم، وصوت حنّا يخترق آذانهما. وصورة النّبي إيليا بعربته النّاريّة تملأ الغرفة.

كان ذلك في فصل الشّتاء. الهواء البارد يتسلّل من النّافذة العالية في الغرفة، ويخترق عظام السّجينين. أحمد ومنير يتدثّران بالغطاء، وحنّا يجلس في سريره، جذعه عار، والبقع البيضاء تملأ صدره الكثيف الشّعر، يمسك الكتاب بيديه كأنّه يخاف عليه من السّقوط، ويقرأ بصوت مرتفع، والسّجينان يستمعان ويريان صوراً غامضة عن عربة تجرّها الخيول النّاريّة.

هكذا بدأت الحكاية.

دخلت حياة ابراهيم نصّار منعطف الاستقرار منذ صدور الحكم بإعدام حنّا السلمان. لم يكن ابراهيم يدري بالضبط هل يخطّط فعلاً للزواج من نورما، أم يكذب على نفسه وعليها كالعادة. فجأة شعر أنَّ تلك الرّغبة الجامحة التي كانت تأتيه بسبب غيرته على نورما وخوفه من احتمال وجود علاقة بينها وبين حنّا، اختفت. اختفت الغيرة وجاء الشّعور بالأمان، وهمد الحبّ. ابراهيم لم يستخدم كلمة حبّ مرّة واحدة، كان يعتقد أنَّه لا يحبّها، لكنَّ الغيرة قتلته، وجعلته يرتجف أمام عينيها المليئتين بالماء، وصوتها وانحناءة كتفها وهي تضمّه إليها. لم يبق من كلّ ذلك بعد اختفاء حنّا خلف حكم الإعدام سوى المضاجعة مرّة في الأسبوع. هي أسّست هذا التقليد، ورفضت أن ينام معها أكثر من ذلك. قالت إنَّها قرأت في كتاب طبّي أنّ الحبّ يجب أن لا يتجاوز المرّة الواحدة في الأسبوع، حفاظاً على بشرة المرأة. وصارت العمليّة بالنّسبة له تشبه الفعل وردّة الفعل. يعود ظهر يوم الجمعة من عمله إلى البيت، يتحمّم بالماء السّاخن، يتغدّى وينام. ينهض في الخامسة والنّصف وينتظر. منذ لحظة دخوله البيت، في حوالي الثانية بعد الظهر، يشعر بارتجافات في أسفله. في الحمّام يبدأ الانتظار يحلو، ويشعر بتنمّل خفيف في ظهره. بعد النّوم يصبح جسمه كلّه في حالة انتصاب. وحين تأتي، حوالي السّابعة مساء، يكون إبراهيم قد نضج، ولا يحتاج إلاّ إليها. فيأخذها

في دقائق معدودة، ثمَّ يستلقي على ظهره وينام. لم يكن يشتهيها بقوّة، كما ادّعت، كان مستعجلاً، وهي تطلب منه التمهّل. تخلع ثيابها ببطء، تتوقّف، تطلب منه أن يتأكّد من أنَّ الباب مقفل خوفاً من عمّته، يتأكّد ويعود. تتحجّج بالستائر المفتوحة، تذهب وتسدل الستائر ببطء شديد. تطلب منه أن يلبس روبه، ويجلب لها قنينة كولا. يلبس روبه، يخرج من الغرفة، ويجلب لها قنينة كولا من الثلاّجة. كانت تحبّ أن تشرب الكولا قبل أن تدخل السّرير، وهو ينفّذ طلباتها، يتأفّف قليلاً، يستعجلها، لكنّه ينفّذ الأوامر كأنّه منوَّمٌ مغناطيسيّاً، ويشعر بعينيها وكأنَّهما تريدان كسر رغبته، والرّغبة في داخله لا تتزحزح، تترنّح قليلاً كأنَّها ستسقط، فيلتقطها بيده ويستعيدها. وفي النّهاية تأتي نورما، وتتصاعد تأوّهاتها التي تأخذه إلى العالم الآخر. يغمض عينيه ويذهب إليها، ثمَّ يستلقي على ظهره، يشعل سيكارة، ويغنّي. تنهض مستعجلة وتبدأ تلبس. يطلب منها أن تبقى، تتردّد قليلاً قبل أن توافق، ويستعيد العالم من جديد.
مرّة واحدة انكسرت رغبته وشعر أنَّه لن يستطيع أن ينام مع هذه المرأة من جديد. كانا في الغرفة، بدأت تخلع ثيابها، وهو ببيجامته الزرقاء يجلس على طرف السّرير وينتظر، وجاءت طقوس كسر الرّغبة، نظر إليها بعينين مغمضتين، وقفت أمامه نصف عارية، وروت له منامها. قالت إنَّها رأت في المنام شقيقها الميت أنطون. كنت وحدي في البيت، قالت، وجاء أنطون. كان لونه أصفر، وعندما اقتربت منه سقط لحمه وكأنَّه ثوب، وتحوّل إلى هيكل عظمي. صار الهيكل يتقدّم منها فاتحاً ذراعيه، يريد أن يضمّها، وهي تتراجع إلى الوراء. ركضت، وركض الهيكل العظمي خلفها، تحوّل صالون البيت إلى غرفة صغيرة زرقاء. التصقت نورما بالحائط اقترب

هيكل أنطون منها، أمسكها من عنقها وألقى بها أرضاً، صارت تلبّط، قالت إنَّها صارت تلبّط وتزعق. امتدّت اليد العظميّة إلى تنورتها ومزَّقتها. واغتصبني. قالت اغتصبني وبكت. فتحت عيني فرأيت حنّا السلمان. تحوّل الهيكل العظمي إلى حنّا السلمان، كان أصفر ومنفوخاً ويلهث، وتخرج من فمه رائحة كريهة.

جلست نورما على طرف السّرير إلى جانب إبراهيم، ومسحت العرق عن وجهها بالشّرشف، ابتعد إبراهيم واستلقى على ظهره، والغثيان يتسلّل إلى أحشائه. بكت نورما كثيراً ذلك المساء، ثمَّ اقتربت من إبراهيم. خلعت نورما تنوّرتها واقتربت منه أكثر، وإبراهيم يشعر بحاجة إلى النّوم، وهي تتنهنه بالكباء والرّغبة. حاول إبراهيم. ضمّته إليها وقبّلته في عنقه. حاول. شعر أنَّ ظهره انكسر إلى نصفين، ورأى الرّغبة القديمة في عينيه، لكن نصفه الأسفل كان مشلولاً وعاجزاً عن الحركة. يومها خجل إبراهيم من نفسه ومن نورما. ونورما حاولت أن تساعده، لكن دون جدوى. ثمّ بدأت تضحك. لم يضحك إبراهيم في البداية، أحسّ بالاختناق وبالقدرة على قتل تلك المرأة، ثمّ صار يضحك. نهض، لبس ثيابه، وقال لها إنّه يحبّها، وأن لا علاقة للحبّ بهذه الأشياء. فقالت طبعاً طبعاً، ولبست ثيابها.

هذه الحادثة خفّفت من إيقاع الرّغبة الأسبوعيّة، لكنّها لم تستطع أن تقضي عليها. في يوم الجمعة التالي خاف إبراهيم. كان ينتظر نورما خائفاً. ثمّ حين جاءت شعر بقليل من الغثيان، وبرغبة ناقصة. وعندما نام معها برغبته النّاقصة فهم أنَّ الأمور تشبه بعضها، وانزاح

عنه الخوف، وأحسّ بالاقتراب من القمّة، وسمع تنهّدات نورما في المخدّة.

عادت العلاقة إلى إيقاعها العادي، علاقة لا يحرّكها سوى العادة والتكرار والخوف. وكان إبراهيم يتغلّب على العادة في مكان آخر، في ميدان سباق الخيل. هناك، كان العالم يتحوّل إلى كتلة من الإثارة، وهناك وجد إبراهيم نفسه. عشق الخيل، وعشق الفرسان القصار القامة، الخفاف، الّذين يدورون بالأحصنة ويركضون. يقفزون عليها، وتحملهم حناجر المراهنين إلى الفوز.

مرّة قرّر إبراهيم أن يشتري خيلاً ويقتني اصطبلاً. يومها جُنّت العمّة سارة، وبدأت تصرخ وتكسّر الصّحون في البيت. حاول إبراهيم أن يشرح لها أنّ الخيل أفضل من الذّهب، وأنَّ هنري بك فرعون صنع ثروته من الخيل، والمرأة تصرخ، وهو يقول لها إنّه لا يطلب منها شيئاً، ولا يريد ثروتها، سيتصرّف بحصّته من اللّيرات الذّهبيّة ويعطيها حصّتها. لكنّ إبراهيم أقلع عن الفكرة، الفكرة كانت مثل حمّى ضربته في الرأس، ثمّ اختفت. قال لنورما يومها إنّ رأسه يصبح ساخناً حين يفكّر في الخيل. كانت أقدام الخيل تظهر أمامه ممشوقة وجميلة ، فيقرّر أن يذهب إلى غرفة المرحوم والده، ويكسر البلاط، ويأخذ اللّيرات الذهبيّة. لكنّه يخاف في اللّحظة الأخيرة، ويتراجع.

كان إبراهيم يذهب كلّ سبت وأحد إلى ميدان السباق، ويراهن بخمسمئة ليرة، وكان ذلك يعدّ ثروة في بداية الخمسينات. ولم يربح، بلى مرّة لعب على «فاروق»، وكان هذا حصاناً عربيّاً لصاحبه راجي البشواتي، وربح خمسة آلاف ليرة. كان إبراهيم يحلم بالخيل

وبالأحصنة الفائزة، وإميل الزغبي الذي يدير محلاً للعب البارولي يسخر منه ومن مناماته، وينصحه بالأحصنة المرشّحة للفوز، لكن إبراهيم كان يتبع مناماته ويرفض تعليمات الأستاذ إميل.

وحين توقّف سباق الخيل عام ١٩٥٨، خلال الحرب الأهليّة القصيرة التي دامت ستة أشهر، أصيب إبراهيم بحزن شديد. إبراهيم يعتقد أنَّ الخواجة شارل عبدو، وهو واحدٌ من كبار أصحاب الاصطبلات والخيول، خدع النّاس بشكل مقصود، واستولى على ثروتهم، لأنّه كان يعرف أنَّ الحرب قادمة.

والحكاية هي حكاية إميل الزغبي، صاحب دكّان «البارولي» الذي مات بالسكتة القلبيّة، بعد تلك الحادثة. لكنّه قبل أن يموت كاد يقتل الخواجة شارل. يومها وقع إميل في الفخّ كما وقع غيره. لعب على «جبل الهوى»، وهو فرس قيل إنّه مزيج عربي وإنكليزي، يجمع رشاقة الحصان العربي إلى قوّة الحصان الإنكليزي، وجلب له الخواجة شارل سائساً خاصّاً من مصر، وفارساً فرنسيّاً أجرد وأشقر كان يدعى فرنسوا. في ذلك الأحد ١٨ أيّار ١٩٥٨ ضربت حمّى جبل الهوى» جميع المراهنين. الجميع راهنوا عليه وبآلاف اللّيرات. إبراهيم لم يحلم بِـ «جبل الهوى»، لكنّه خان رؤيته وراهن عليه. يومها كلّ بيروت راهنت على «جبل الهوى»، وعلى الجوكي الفرنسي فرنسوا. وجلس الخواجة شارل في مقدّمة الحضور، يضع منظاره على عينيه ويبتسم. والنّاس داخل الميدان وخارجه كأنّها في يوم الحشر. وجاء الشّوط الثاني، وركض «جبل الهوى»، وركضت قلوب النّاس. وفجأة قال النّاس إنَّ فرنسوا شدّ اللّجام، وقال

آخرون إنَّ فرنسوا تهاوى وسقط. خرج الحصان عن مسار السّباق، وسقط الفارس أرضاً، وتابعت الخيول ركضها. لم ينتظر النّاس

النتيجة، نزلوا من المدرّجات وهم يريدون رأس فرنسوا الذي حاول الهرب، لكنّ الجموع أحاطت به. قيل يومها إنَّه لولا تدخّل رجال الشرطة وإطلاقها النّار في الهواء لمات الجوكي تحت الأقدام. أطلق رجال الشرطة النّار، ووقف فرنسوا على ساقيه النحيلتين وحاول الهرب، فوجد نفسه وسط دائرة من الرّجال. حاول اختراق الدّائرة فانهالت عليه الضّربات، وبدأ ينزف دماً من أنفه وأذنيه. هنا تختلف الرّوايات. بعضهم يقول إنَّ فرنسوا صرخ «يا إخوات الشرموطة أنا ما خصّني، شوفوا الخواجة»، وبعضهم يقول إنّه لم يتكلّم، لكن مجموعة من الشّرطة قوّصت في الهواء، فاستطاع فرنسوا الهرب وسط الهرج والمرج. يومها تأكّد النّاس أنَّ فرنسوا ليس فرنسوا، وأنَّ شارل بيك ضحك عليهم. ففرنسوا شاب كردي كان يعمل سائساً عند شارل بيك. جاءت فكرة تحويل الكردي إلى فرنسوا من المدموزيل أنجيل، ابنة البيك، بطريقة عفويّة. فقد اعتقدت المودموزيل أنجيل السائس الكردي شابّاً فرنسيّاً، بسبب شعره الأشقر، فتكلّمت معه بالفرنسيّة، فلم يجاوب. روت الحكاية لوالدها، فضحك عليها وجاءته الفكرة.

انكشفت الخدعة، حاول الخواجة شارل الهرب من الباب الخلفي لميدان السباق، عندما وجد أمامه إميل، عميله في «البارولي». هجم إميل عليه وكمشه من خصيتيه، وصار يشدّ ويصرخ: «يا أخو الشرموطة يا بيك، خربتلّي بيتي يا بيك». إميل يشدّ ويشتم، والبيك

لا يجاوب. أغمي على البيك، واعتقلت الشّرطة إميل الذي أفلس، ثمّ مات بالسكتة القلبيّة بعد يومين من إطلاق سراحه.

إبراهيم نصّار كان هناك، لكنّه لم يرَ شيئاً. رأى النّاس يركضون فركض معهم، وسمع إطلاق نار، ثمّ لا يذكر شيئاً. إبراهيم يعتقد أنَّ الجوكي قبض، ويشكّ في حكاية إميل.

«مش معقول يعمل هيك»، قال، «شارل بيك هو أحد أبطال الاستقلال، يعني معقولة يمسك الواحد الاستقلال من تحت ويصير يشدّ».

يذكر إبراهيم نصّار يوم رأى شارل بيك في تظاهرات الاستقلال. خرج البيك إلى الشرفة وألقى خطبة عصماء عن وحدة الهلال والصّليب، وعن لبنان الذي لا يطير إلاَّ بجناحيه المسيحي والمسلم، وعن رئيس الجمهوريّة المعتقل في قلعة راشيّا. يذكر إبراهيم أنَّ شارل بيك خرج على النّاس من شرفة مبنى الشّرطة الذي يقع على مدخل السوق العمومي، وخطب بالمتظاهرين ملوّحاً بورقة في يده. كان البيك قصيراً، أبيض البشرة، ذا كرش ضخم، وعلى خدّه الأيمن كومة صغيرة سوداء يعتقد النّاس أنَّها شهوة أمّه بالفريز خلال حملها به، ويصرّ حنّا على أنّها سبب الشذوذ الجنسي الذي كان البيك مشهوراً به، رغم زواجه وإنجابه لأنجيل التي تزوّجت ابن الشّامي صاحب البنك. لوّح البيك بالورقة، وألقى الخطاب واختفى. واشتعل المتظاهرون، هجم الجنود السنغاليّون بقيادة ضبّاطهم الفرنسيّين على النّاس، وسمع إطلاق نار. ونال لبنان استقلاله. وصار شارل بيك زعيماً كبيراً، وعضواً دائماً في جميع الوزارات. أمّا

حكاية «جبل الهوى» فأغلب الظنّ أنّ فرنسوا الكردي قبض مبلغاً كبيراً من المال كي يشدّ لجام الحصان لحظة انطلاقه، فسقط الحصان أرضاً، وسقطت أحلام المراهنين، وحصل ذلك الهرج والمرج الذي جرى تضخيمه لأنّ الحرب الأهليّة بدأت بعد أسبوعين من الحادثة. سباق الخيل أقفل أبوابه، وتوقّفت المراهنات، وأعلنت الإدارة أنّها ستفتح تحقيقاً لتحديد المسؤوليّات، فجاءت الحرب، وضاعت المسؤوليّات، وشارل بيك اختفى عن المسرح السّياسي. هكذا في لبنان، تأتي الحرب وتلغي المسؤوليّات، وبدل أن يُحاكم المجرم تحوّل الحرب الجميع إلى مجرمين وضحايا.

«نحن هربنا. أنا كلّ حياتي ما بسمع أهلي إلاّ وبخبّروني عن الهريبة. الحرب يعني نهرب ونعوّي. بيّي بالآخر، وقت اجت النزلة الصدريّة، صار يعوّي مثل كأنّه ديب وحيد بقلب الوادي. عمّتي سارة صارت تبكي. وقالت إنّه هيدا معناته أنّه بيّي بدّو يموت. هيك بيّو لمن ختير ووصل على حافّة الموت صار يعوّي وبعدين مات. يمكن لأنّه بهيديك الأيّام وقت هربوا بالحراش من «عين كسرين» على «دير القمر» كانوا يخافوا باللّيل من الدّياب والواويّة، فكان جدّي يحرسهم. يناموا بالحراش، وهو من وقت لوقت يصير يعوّي متل الدّيب حتّى يهرّب الحيوانات المفترسة. هيك مات جدّي، وهيك مات بيّي. وقت شعب كامل بيهرب وبصير يعوّي، منصير متل الحيوانات. نحن هيك صرنا متل الحيوانات».

كانت نورما تستمع إلى خطاب إبراهيم عن الحيوانات، وتخاف من حنّا. خافت منه في البداية ثمّ تعوّدت. لكن الخوف الحقيقي جاء بعد حصول الجريمة. يومها رأته وكان كالمجرمين، ويومها خافت

فعلاً. كان هادئاً ورصيناً، يضع أمامه على الطّاولة علبة الدخان ويتلاعب بها ويتكلّم بصوت خفيض يكاد لا يُسمع. سألته فأخبرها. لم يخبرها حكاية الرّسالتين ووعوده. أخبرها أنّه كان نائماً حين سمع الأنين، ثمّ رأى منير فوق أحمد الميت ومنير يصرخ «أنا قتلته»، ورجال الحرس الذين تراكضوا، ومنير الذي يرتجف.

يقول حنّا إنّ حياته بدأت في الحبس.

في سجن الرّمل، تعلّم معنى الحياة من ثلاث حكايات رواها له منير وأحمد، لكن حكاية الملفوف سحرته.

تقول الحكاية، في ذلك الزمان شعر سامي الخوري أنّ الدنيا أقفلت في وجهه، وأنّ المخبرين اخترقوا شبكاته وصار محاصراً. فأعلن لأنصاره أنّه اعتزل المهنة، وقرّر الانصراف إلى زراعة الخُضَر. لم يصدّقه أحد، أعلن اعتزال المهنة وذهب إلى منزله في زحلة، وصار لا يغادره إلاّ إلى المقهى المجاور، حيث يلعب الشطرنج ويدخّن النارجيلة، وكلّف منير وأحمد بضمان قطعة أرض في الدامور وزرعها ملفوفاً.

«يا عيني على المعلّم»، روى منير.

«قلّلنا زرعوا ملفوف، فكّرناه جنّ، قال اضمنوا الأرض وازرعوها ملفوف، وما حدا فتح تمّه. كنّا جداد بالكار، وما منعرف حدا من الشبكة القديمة، قلنا يا ريّس نحن جايين ناكل خبز، وشغلة الزراعة مش شغلتنا، قال ازرعوا والباقي عليّي. وزرعنا. بتعرف كيف الملفوفة. الملفوفة أوّل ما بتطلع بتبقى مفتوحة»، فتح منير يديه كي يشرح لحنّا، «صرنا نسقي الملفوف ونتفرّج وما نفهم، طبعاً مش

نحن زرعنا، شغّلنا عمّال زراعيين من المنطقة، ونحن كانت شغلتنا المراقبة والتأكّد من أنّ الملفوف فتّح. وبليلة ما فيها ضو قمر وصل المعلّم، ومعه عشر شباب ومعهم مسدّسات «مغنوم»، أميركانيّة، وعشر سيّارات محشيّة حشيشة. أخدنا الحشيشة وزرعناها بقلب الملفوف المفتوح، اشتغلنا كلّ الليل، الريّس سامي ما كان يقبل إلّا يشتغل بايده، القضيّة عنده مش تهريب وبس، كانت هواية، صار يحطّ الحشيش بقلب الملفوف كأنّه حكيم عم يعطي دوا للمريض. وبعدين راح وضلّوا الشباب معنا. هنّي يحرسوا ونحن نسقي. وبعد عشرة أيّام، كانوا أطول من ميّة سنة، سكّروا الملفوفات، طبّقوا نهائيّاً، وبلعوا الحشيشة. والملفوفة تكبر ونحن نتفرّج ونقول يا سبحان الله. وبعدين قطفناهم وبعتناهم بطيّارات الشّحن على مصر، على اعتبار أنّها صفقة تصدير ملفوف. وبعد ما وصلت الطيّارات وفضّت ومشي الحال، تلفن الريّس للكولونيل جميل الطيّارة وخبّره وصار يضحك، ومن وقتها صار الكولونيل زلمتنا. شي ما بيتصدّق. سبحان الله كيف الملفوفة بتطبّق».

استمع حنّا إلى الحكاية، وصار يحلم بالملفوف، وبذلك السرّ الذي تخبّئه الطّبيعة. الإنسان مثل الملفوفة، تستطيع أن تخبّئ في داخله ما تشاء. أحمد أخبر حنّا أنّ الريّس سامي يفأفئ ويتكلّم بصوت منخفض، ويسحر النّساء بقدرته على اكتشاف السرّ في داخلهنّ. «المرأة هي المتوقّع، عليك أن تكون في متوقّعها كي تعطيك ما تشاء». استمع إلى الريّس سامي يحدّثه عن النّساء والمتوقّع، وحاول أن يقول له إنّه لا يهتمّ بالنّساء، وأنّ هدفه المال. لكنّ الريّس سامي قال إنّ هذا خطأ، واكتشف حنّا بعد ذلك أنّ الريّس كان على حق.

خرج حنّا من السّجن، وذهب مباشرة إلى سامي الخوري. ذهب وحده إلى الشّاليه الكائن في منطقة «الجناح»، في مسبح «الأكابولكو». قرع حنّا الباب ففتح له سامي الخوري الذي كان وحيداً في الشاليه مع فتاة شقراء.

رحّب به المهرّب وكأنّه يعرفه من زمان.

«بتحب عرّفك على نفسي»، قال حنّا.

«ولو يا أستاذ حنّا، أنت معروف، صورك منشورة بكلّ الجرايد، بعدين أنا ناطرك ومعجب فيك، مش قليل، بعد ما قريت عنك، فكّرتك أكبر من هيك، قدّيش عمرك»؟

«٢٨ سنة يا بيك».

«بلا بيك، أنا مش بيك، أنا الريّس هون وأنت معي، من وقت ما خبّروني كيف طلعت من القصّة شرد مرد، وخلّليت رجّالان يموتوا، وأنت بريء، قلت هيدا هو».

كيف نصف الريّس سامي؟

رجل، نحيل قصير، في الرابعة والعشرين، عيناه صغيرتان وخجولتان، كثّ الحاجبين، صغير الأنف، ينظر إلى الأعلى دائماً، يتكلّم بتردّد ويتعلثم، صوته منخفض، تحتاج أن تصغي جيّداً لتسمع ما يقول. رجل عملي، يصرف كثيراً ويربح كثيراً ويحبّ النّساء. يضع كأس الويسكي أمامه بشكل دائم. لكنّه لا يشرب، يجعل الآخرين يشربون، وهو يستمع إليهم باحثاً عن نقاط ضعفهم. يغيّر قيمصه وكرافاته ثلاث مرّات في اليوم، يأكل قليلاً وبسرعة.

ولد سامي بن سليم الخوري في زحلة عام ١٩٢٠، وبدأ عمله في

تهريب المخدّرات وهو في الرّابعة عشرة. حكاية الملفوف واحدة من الحكايات التي تُروى عن قدراته العجائبيّة في التملّص من شباك رجال البوليس. إنجازه الكبير الذي حوّله إلى واحد من كبّار المهرّبين في العالم، هو حادثة الطائرة المصريّة. والحكاية ليست مهمّة بذاتها، المهمّ فيها هو كيف نظر المهرّب إلى ضابط البوليس المصري في عينيه، وكذب عليه، وظلّ يكذب حتّى النهاية. واكتشف الريّس سامي أنّك تستطيع كسر عيون الآخرين حين تكذب. العين هي الحدّ الفاصل بين الصّدق والقوّة. نظر في عيني الضابط وادّعى أن لا علاقة له. كان شركاؤه يجلسون مطرقين في مكتب الضابط المصري، وقد اعترفوا بكلّ شيء. الطيّار اللّبناني الذي قاد الطّائرة من مطار بيروت إلى مطار القليعات، القومندان عكر، وقف عندما دخل سامي الخوري.

«خربتلّلي بيتي، الله يخرب بيتك، أنا ما خصّني، هو غرّني بالمصاري وضحك عليّي وورّطني».

نظر سامي الخوري إلى القومندان عكر من الأعلى إلى الأسفل كأنّه لا يعرفه، ثمّ جلس بهدوء على الكرسي.

«بتقول إيه يا سامي بيه؟» سأل الضابط المصري.

«مين هيدا؟» أجاب سامي.

«ولو يا ريّس سامي، بطّلت تعرفني؟»

«مين هيدا يا سيدنا، وشو بدّو منّي؟» سأل سامي.

ووقعت معركة العيون، كما أسماها سامي الخوري، وانتصر المهرّب. يومها عرف سامي كيف ينتصر. وعندما دخل عليه حنّا السلمان المالح اكتشف أنّ عيني سامي الخوري تغلبان. كانت

عيناه صغيرتين وترقصان، وكان يعلم أنَّ معركة العيون تدور في اللّحظات الأولى للقاء. انكسر حنّا بسرعة، وتحوّل إلى ضابط الارتباط بين الريّس والكولونيل جميل الطيّارة. وعندما سنحت له فرصة الخيانة، بعد سقوط المهرّب وتحوّله إلى مهرّب للدخان الأميركي من طنجة إلى بيروت، رفض حنّا الخيانة. رفضها لأنّه خاف من عيني الريّس، شعر أنّه لا يستطيع أن يخون تلك العيون.

كان سامي صامتاً، والقاضي يعرف أنّه يكذب. «بس انكسر»، قال حنّا، «انكسروا عيونه وما عرف شو بدّو يقول. إذا العين ما انكسرت ما في أمل. العين مراية، والمراية كذّابة، مين قال إنَّه المراية بتعكس الحقيقة، المراية بتعكس شو ما بدّها».

انكسرت عينا الضابط وهو يرى عيني المهرّب تتراقصان في وجهه. كان هادئاً، ومصرّاً على نفي كلّ شيء.

«أنا سايح ببلدكم يا باشا، وهيدول كذّابين، هيدول أعدائي السياسيّين بلبنان، لفّقوا التهمة ضدّي، وأنا ما بعرف حدا منهم».

كان في الثامنة عشرة عندما ذهب إلى القاهرة وأقام في فندق «هيليوبوليس» في مصر الجديدة، ودخل معهد «أمبابة» للطيران المدني، وأظهر تفوّقاً في قيادة الطائرات. وفي المعهد أوقع في شباكه الطيّارين المصريّين محمّد منير وعبد الجليل سلام، وتمّت العمليّة. استأجر سامي طائرة صغيرة من نوع «بتيش كرافت»، قادها عكر من مطار بيروت إلى القاهرة، لكنّه غيّر مسارها في الجوّ وأنزلها في مطار «القليعات» المهجور. وهناك، على المدرج الفارغ، عبّأها رجال المهرّب بخمسين كيلو من حشيشة الكيف وضعت

داخل أكياس نايلون. وأقلعت الطائرة من جديد باتّجاه مطار «ألماظة» في القاهرة. وقبل أن تصل إلى المطار دارت حول صحراء «بلبس» وطارت على علوٍّ منخفض. وكانت الشراشف البيضاء هي العلامة التي نصبها الطيّاران المصريّان محمّد منير وعبد الجليل سلام، الشراشف دلّت القومندان عكر على اتّجاه الرّيح، وعلى مكان وجود عملاء سامي المصريّين. انخفضت الطائرة وألقت بحمولتها في الصحراء، وارتفعت من جديد وحطّت في مطار «ألماظة». لكن الصدفة جعلت من سيّارة لخفر السّواحل المصريّة تمرّ أثناء التحليق المنخفض للطائرة فوق الصّحراء، فشكّ رجالها في الأمر واكتشفوا الأكياس، وانفضحت العمليّة، وتمّ اعتقال الجميع.

اللّواء المصري عبد العزيز صفوت، الذي قاد بنفسه التحقيق، لم يخفِ إعجابه بهذا المهرّب الذي أصرّ على إنكار علاقته بالأمر. وفي المحكمة رفض الاعتراف مع أنَّ كلّ شيء كان مكشوفاً. «أجمل طريقة للعب البوكر هو أن تلعبها مكشوفة، وتجعل خصمك لا يصدّق عينيه وهو يراك تلعب الخسرانة كأنّها ربحانة». في المحكمة لعب سامي الخسرانة ربحانة وخسر، لكنّه يقول إنّه ربح. «نحن منجمع خبرات، الحياة تجميع خبرة، الخسارة مش مهمّة، خلّليك ربحان بتربح حتى وأنت خسران».

عقدت محكمة جنايات القاهرة سبعاً وعشرين جلسة ترافع فيها عشرون محامياً. وفي الجلسة العاشرة تكلّم المدّعي العام المصري أربع ساعات عن سامي، وثلاثة أرباع السّاعة عن بقيّة المتّهمين، وأكّد أنَّ جميع الأدلّة تشير إلى أنَّ هذا الفتى اللّبناني هو واحدٌ من أخطر المهرّبين في عالم المخدّرات.

وأصدرت المحكمة الأحكام التالية :
سامي بن سليم الخوري، السجن خمس سنوات.
حافظ الشعّار، السجن خمس سنوات.
الطيّار محمّد منير، السجن ثلاث سنوات.
الطيّار عبد الجليل سلام، السجن ثلاث سنوات.
القومندان جوزيف عكر، السجن ثلاث سنوات.

قضى الريّس سامي ثلاث سنوات في السّجن بسبب التخفيضات التي جاءته نتيجة لحُسْن سلوكه. وعاد إلى لبنان لتستقبله خمسمئة سيّارة في مطار بيروت، ولتبدأ مرحلة جديدة في التهريب، هي مرحلة استخدام الطائرات. لا أحد يعلم إذا كان سامي الخوري وراء هذه العمليّات، أو كان صاحب الفكرة التي جرى استخدامها على نطاق واسع في لبنان.

سامي اكشتف «سرّ الحياة من فوق»، كما قال لمحاميه الأستاذ جميل غندور. والأستاذ غندور تحوّل من محام إلى مرافق، لا لأنَّ سامي الخوري أغرقه بالمال والنّساء وحسب، بل لأنَّه سحره. «كان كالسّاحر»، كتب المحامي في إحدى المجلاّت اللّبنانيّة بعد اختفاء سامي عام ١٩٦٣. «الأخلاق عنده هي سحر الأخلاق. كان مخلصاً وفارساً ومجنوناً، لكنّه أضاع حياته في المغامرة، لم يعرف متى تنتهي اللّعبة، فافترسته اللّعبة».

حنّا السلمان المالح قرأ المقال وشتم المحامي. فحنّا يعتقد أنَّ سامي عرف أنَّ اللّعبة انتهت، فذهب إلى صحراء «شرقي الأردن» حيث اختفى. كان يعلم أنّه ذاهب إلى حتفه، وأنَّ الحكاية وصلت إلى نهايتها، فقرّر الذّهاب وتسليم نفسه إلى آل «الشرحال» الذين

يطالبونه بثلاثة ملايين ليرة لم يكن يملك منها قرشاً. فالعمليّة الكبيرة لتهريب الحشيش إلى إسرائيل فشلت، لأنّ المهرّبين الإسرائيليّين استولوا على الكمّيّة ولم يدفعوا، مدّعين أنّها صُودرت. حسين الشرحال لم يصدّق، واعتقد أنّ سامي يلعب عليه اللّعبة التقليديّة التي يمارسها المهرّبون. ذهب إليه سامي من فندقه الدّمشقي وهو يعلم أنّها النهاية.

«المحامي حمار»، قال حنّا للكولونيل جميل. «أهمّ شيء بالأبطال هو طريقة موتهم، وسامي الخوري عرف كيف يموت».

هذا الفتى القادم من مدينة «زحلة» دوّخ الجميع في حياته، ثمّ دوّخهم في اختفائه، وتحوّل إلى حكاية. من حيّ «البربارة» في «زحلة» وسط سهل «البقاع»، حيث تنبت الحشيشة إلى جانب القمح والعنب والدرّاق، وتفوح رائحتها العطرة وسط الحقول الشّاسعة، إلى صحراء «شرقي الأردن»، حيث اختفى وسط ذهول رجاله الذين بقوا بانتظاره حتّى عام ١٩٧٥، حين اندلعت الحرب الأهليّة الطويلة. بالطّبع هناك من سلّم بالواقع الجديد، واشتغل مع شبكات جديدة لكن حنّا المالح رفض.

«بعد سامي ما في حدا»، قال للكولونيل جميل الطيّارة. «أنا ناطر المعلّم، يمكن مش رح يرجع، بس بدّي أنطر».

يومها اقتنع الكولونيل وحلّ عن حنّا. كان من الصّعب إقناع أحد بأنّ مهرّباً قد تخلّى عن المهنة، لكن حنّا تخلّى عنها وذهب إلى بيته ينتظر، وعاد إلى عيشة الفقر، ولم يحتفظ من ذكريات تلك الأيّام التي قضاها مع المعلّم في إدارة العمليّات بغير ذكرى البخور. كان

سامي الخوري يسمّي الحشيشة بخوراً ولا يدخّنها. وصار حنّا يسمّي الحشيشة بخوراً، ويشمّها. بقي طوال حياته حريصاً على أن يقتني مع بداية كلّ موسم قطعة من زهرة الحشيش تزن نصف كيلو، يلفها بورق الألمنيوم، ويضعها في جارور ثيابه الدّاخليّة، ويشمّها مرّتين في اليوم، بعد الغداء وبعد العشاء وينتشي. كان البخور يعطيه شعوراً غريباً بالانتشاء. لكنّه لم يدخّنها. المعلّم كان هكذا، لم يدخّنها أبداً، يشمّها ويمضغها أحياناً. سأله حنّا «هل تأكلها يا ريّس»؟ فجاوبه سامي الخوري بأنّه يتذوّقها كي يتأكّد من النوعيّة. «تدخين الحشيشة هو شغل ولاد ومجاديب، نحن ما مندخّنها، منشمّها ومنبيعها». قال الريّس.

توقّف حنّا عن بيعها بعد اختفاء الريّس، لكنّه تابع شمّها.

بدأت الحكاية عندما خرج حنّا السلمان المالح من سجن الرّمل، وذهب إلى شاليه مسبح «الأكابولكو». قرع الباب ودخل. كان سامي الخوري يجلس مع امرأة شقراء تلبس مايوه بكيني. سامي بكامل ثيابه، وأمامه كأس ويسكي، وصحن من التفّاح المقطع.

دخل حنّا وقال إنَّه قادم من طرف الملفوف.

«اقعد»، قال سامي، «أنا بعرفك من زمان، أهلاً وسهلاً، بس عندي ما في جرائم، نحن منهرِّب وما منتقل».

«بس يا بيك»، قال حنّا.

«القتل ممنوع».

«أنا ما قتلت يا بيك، المحكمة برّأتني».

نظر إليه سامي الخوري نظرة مفترسة، وتكلّم بصوت خافت وبطيء. «أوّلاً ما تقلّلي بيك، أنا الريّس، تانياً أنت مش بريء، صحيح فكتور عوّاد عمل هيديك الجرايم، بس أنت جريمتك أكبر، روّحت اتنين من رجالي لأنَّك ضحكت عليهم بالمرا. تالتاً، بدّك نسوان، هون في قد ما بدّك، بس القتل ممنوع. شفت هاي الشقرا، بتعجبك».

«يا ريّس مش هيك القصّة».

«جاوبني بتعجبك؟»

«بتعجبني».

«خدها، أنا عم قلّلك خدها، بس أوعك تفكّر أنّي مش عارف، أنا

بعرف كلّ شي، قوم يا خيّي خود الحرمة، وبعدين منحكي».

«بس».

«بس شو، هون ما في بس، أنا عندي مشوار صغير برجع بعد ساعة، وبتكون دبّرت حالك، وبعدين منحكي».

وعندما عاد الريّس بعد ساعة، كانت الشّقراء قد ذهبت، وحنّا يجلس في الشاليه وحيداً، أمامه كأس ويسكي، ووجهه المليء بالقشور البيضاء يلتمع بالاكتفاء. لم يقل له الريّس شيئاً، ويومها فهم حنّا، لم يكن الريّس بحاجة إلى قول أيّ شيء، فالكلام لم يعد ضروريّاً، وبدأ العمل. أوّلاً في السّوق العمومي، وبعد ذلك كضابط ارتباط مع الكولونيل جميل الطيّارة.

«هو يلّلي خربنا يا ريّس، خلّليني اقتله»، صرخ حنّا.

«بعرف بعرف، بس شو فينا نعمل، أنا عندي القتل ممنوع».

كان سامي يعلم أنَّ الكولونيل الذي صار مليونيراً بفضل مشاركته في أعماله، كان يخونه. فالمشاركة بين المهرّب والبوليس لا يمكن أن تدوم إلى الأبد. المهمّ من يضرب الضربة الأولى. وسامي كان صاحب الضربة الأولى دائماً، لكنّه وقع هذه المرّة. فالكولونيل عرف كيف يوجّه ضربته. كانت تهريبة الأفيون إلى تركيا عبر سوريا هي التي خربت بيت سامي، لأنّه أنفق كلّ ما يملك في سبيل صفقة العمر هذه. ووقعت الضربة كالصاعقة. انكشفت القافلة على الحدود التركيّة ـ السوريّة، وقبض البوليس على عشرة من رجال سامي، وخسر الريّس كلّ ثروته، ووجد نفسه ملاحقاً ـ ومفلساً ومحاصراً، وبدأ التدهور الذي قاده إلى تهريب الدخان الأميركي بطرق بدائيّة، وانتهى به في «شرقي الأردن» بعد فضيحته مع المهرّبين الإسرائيليّين.

وانتهى كلّ شيء.

في ١٥ أيّار ١٩٦٣، استقلّ سامي الخوري سيّارة البويك الحمراء التي يقودها سائقه ميشال مدوّر، ومعه صديقه المحامي منير علويّة، واتّجهوا إلى عمّان، وعادوا بعد ذلك إلى دمشق، وأقاموا أربعة أشهر في شقّة استأجرها سامي في حيّ «أبو رمّانة». ومن الشقّة أقام الريّس اتصالاته ببعض كبار المهرّبين. وفي ١٤ أيلول، التاسعة صباحاً، غادر سامي الخوري شقّته يرافقه سائقه ولم يعودا. بعد ثلاثة أيّام بدأ المحامي عمليّة البحث التي امتدّت سنوات. المحامي كان مقتنعاً أنّ سامي لم يقتل أو يخطف، لكنّه قرّر الاختفاء بمحض إرادته. أمّا حنّا فكان مقتنعاً أنّ الحكاية انتهت.

الريّس اختار نهايته، والحكاية انطوت كما السرّ.

ما سرّ الصداقة بين إبراهيم نصّار وحنّا السلمان المالح؟

لم يكن هناك من جامع بينهما، حتى نورما فقدت أهميّتها، بعد أن تخلّى عنها حنّا نهائيّاً في سنوات عمله مع الريّس سامي. وصارت زوجته تعرف مع أيّة امرأة كان من رائحة الكولونيا التي تفوح منه. فهو بعد خروجه من السجن، وبعد أن قال لزوجته إنّه يسامحها، أفهمها أنّ العلاقة الزوجيّة بينهما انتهت. لم تعترض، فهي أيضاً كانت تريد للعلاقة الجنسيّة أن تتوقّف، لأنّها كانت تخاف مرضه الجلدي المزمن. كان مرضه قد تحوّل إلى علامة ثابتة في حياته. في الرّبيع يطفح جلده بذلك البياض الذي يشبه البقع، وتنتشر البقع في جميع أنحائه. وتبدأ الآلام التي تستمرّ حتّى نهاية شهر أيلول. ستّة أشهر من الملح، وستة أشهر من الجلد العادي. حنّا تعوّد على الوضع، والطبيب قال إنّ أسباب الطّفح الجلدي نفسيّة. فأكل الملح

لا ينتج عنه مرض محدّد، المسألة هي الفترة التي قضاها في السجن بانتظار تنفيذ حكم الإعدام. تحوّلت هذه الفترة إلى ما يشبه السجن النفسي الدائم. الزوجة اقتنعت بحياتها معه ولم تعد تطالبه بشيء. كلّ ما تريده كان السترة. شعرت بالخجل من نفسها لأنّها تخلّت عن زوجها في تلك الأيّام الصّعبة، ورضيت بحياتها الجديدة معه. وصات تشمّ الرّوائح دون أن تجرؤ على السّؤال.

إبراهيم نصّار كان يعلم، لكنّه تصرّف مع صديقه وكأنّه لا يعلم. الصداقة هي أن تترك الأشياء دون أن تقولها. هذا سرّ الصداقة. حتّى نورما بقيت سرّاً بين الرجلين، لم يتحدّثا عنها سوى مرّة واحدة وبشكل عرضي. حنّا كان يعلم أنّ إبراهيم لن يتزوّج نورما بسببه، فليس من المنطقي أن يتزوّج إبراهيم فتاة شاركه فيها أعزّ صديق له. لكنّه لم يشعر بالذنب. كان يعتقد أنّ النّاس تذهب إلى أقدارها التي تختارها. تعلّم من الريّس سامي أنّ الإنسان يذهب إلى حيث يقوده ظلّه. «الظلّ يذهب بنا إلى حيث يريد، وحين نحاول أن نستدرك، يكون الأوان قد فات، فنصبح أسرى ظلالنا». إبراهيم نصّار لم يحاول أن يستدرك ظلّه، وكان ضائعاً وغريباً. كانت عمّته سارة تملأ البيت كلاماً وجنوناً. ما يسمّى عادة بسنّ اليأس تحوّل عندها إلى حالة جنونيّة دامت عشر سنوات. عشر سنوات من التخبّط وهو يرى عمّته كالمجنونة. مرّة شعر أنّه قادر على مضاجعتها ليحرّرها من عقدة عذريّتها التي تحوّلت إلى مصيبة. عندما يدعوها أحدهم مدام، تقول لا أنا مدموزيل، فيبتسم «الأحَدُهُمْ»، ويتمنّى إبراهيم أن تنشقّ الأرض وتبتلعه. توقّفت عن صبغ شعرها بالحنّاء، وصارت تستعمل شمبواناً أشقر، وتلفّ شعرها. صارت كالشيطان، وإبراهيم يعيش مع

هذا الشيطان ويقرّر أن يهاجر. كلّ حياته يقرّر أن يهاجر ولا يهاجر.

نورما وجدت عملاً، بعد نجاحها في البكالوريا، وصارت تساهم مع أمّها نبيهة في تكاليف بناء البيت الجديد.

«هيدا البيت تعمّر من مصريّاتنا»، قالت العمّة سارة لإبراهيم. وحكاية البيت لا تصدّق، كيف استطاعت نبيهة أن تعمّر بيتاً من عملها خادمة في البيوت، ومن المال القليل الذي كانت تدفعه نورما، بعد أن عملت سكرتيرة عند القوميسينجي السرياني سعيد خوّام. يُقال إنَّ نورما كانت تسرق «المساطر» التي يوزّعها سعيد مجّاناً على زبائنه، فتبيعها وتأخذ ثمنها. كانت تبيع المعاطف بنصف أثمانها، وتشتري الترابة والحديد والبحص. والبيت يصعد من لا شيء، من قطعة أرض صغيرة ومستطيلة لا تصلح للبناء، عمّرت نبيهة بيتاً مؤلّفاً من غرفتي نوم وصالون ومطبخ وحمّام، وجاء الأستاذ حاتم عبد المسيح ليقضي أيّامه الأخيرة في البيت الجديد، مع ابنته العانس، وزوجته المصابة بالروماتيزم.

«إنَّه سوء تفاهم»، قال لها حنّا.

كانت نورما تشكو له إبراهيم.

«بس هو شو بدّو منّي»؟ سألت نورما.

«ما بعرف».

«طيّب اشرح لي، أنتو الرّجال كيف، النسوان شي واضح، يا منحب يا ما منحب، انتو كيف»؟

«ليش أنتِ مين حبّيتي».

«حبّيتك إلك، بس أنت ما كان بدّك ياني، كنت روح عند إبراهيم

غمّض عيوني وشوفك، بعدين صرت حبّو، الحبّ ببلّش بالرّيحة، صرت حبّ ريحته، بس حبّيته حسّيت إنّه بطّل، قبل كنت شوفو كيف يعمل، كان كأنّه عم يشربني شرب، بعدين بطّل».

قال لها حنّا إنَّ الحبّ هو سوء تفاهم. أنت تتوقّعين شيئاً، وهو يتوقّع شيئاً آخر. الحبّ هو الخيال والخيال سوء تفاهم. إذا بقي سوء التفاهم يبقى الحبّ، وعندما يحلّ التفاهم يكون كلّ شيء قد انتهى.

سوء التفاهم هو بداية تلك الجريمة التي حصلت في السجن. حدث كلّ شيء وكأنّه مخطّط له. حنّا يستطيع أن يُقسم أنّه لم يخطّط لشيء، وأنَّ المسألة كانت مجرّد سوء تفاهم.

حنّا لا يعرف ماذا حصل له. فجأة اشتعلت شهوته إلى كلّ شيء، وأحسّ بالوحدة. إنّها المرّة الأولى في حياته التي شعر فيها أنّه موجود. الوجود هو الشعور بالوحدة، الشعور أنّك وحدك، وأنَّ هذه «الوحدك» هي كيانك. قبل هذا الشّعور لا تكون، وحين يأتي تسقط في هاوية عميقة، تفقد كلّ رغباتك دفعة واحدة، ويأتي الأرق الطويل الذي يعذّبك وكأنّه يفترسك من الداخل. تصبح عيناك عدوّك. عينان لا تغمضان، وإذا أغمضتا لا تنامان، وإذا نامتا تعطيانك الشّعور بأنّهما لم تناما، عاش حنّا في السّجن مع هذه الوحدة، ثمَّ استفاق ليجد نفسه مع سجيبين آخرين، أحمد العتر ومنير سلوان، في هذه الغرفة الصغيرة. في الغرفة انفتحت الهوّة في داخله، وتحوّلت وحدته إلى شغف بامتلاك كلّ شيء. توحّش في الأكل، وتوحّش في الضحك، وتوحّش في السكر، وتوحشَ في الرّغبة الجنسيّة، ولم يعد مصدوماً من فكرة أنّه سيعدم، صار متأكّداً من أنَّ الإعدام لن يأتي،

وأنَّ الأبونا سرجيوس معه حق، فمار الياس سوف ينقذه. وبدأ حنّا يصلّي. كان لا يملّ من قراءة سيرة مار الياس في الكتاب الذي جلبته له نورما. غير أنَّ الصّلاة لم تمنعه من الرّغبة في كلّ شيء. لم يكن حنّا يصلّي لأنَّه سيموت، فالإنسان الذي يموت لا يصلّي، يصلّون له. الإنسان الذي يصلّي هو المقتنع بأنَّه سيعيش. الصّلاة شكل تعبيري، والموت نهاية كلّ تعبير. الصّلاة لم تمنع حنّا من الشّغف بامتلاك كلّ شيء، بل أيقظت فيه رغبة القتل. كان أكثر ما يحبّه في مار الياس هو المذبحة التي صنعها بفكّ الحمار، حين قتل ثلاثمئة من أنبياء البعل. يقرأ حكاية المذبحة، ويرى يديه وكأنَّهما تمتدّان إلى عنقي الرّجلين اللذين ينامان في الطّرف الآخر من الغرفة.

مع هذا الشّعور بالوحدة صاروا يعاملون حنّا بشكل مختلف. ربّما ندموا على العذاب الذي أذاقوه إيّاه، فتسامحوا معه في أيّامه الأخيرة. كانت عذابات حنّا هي كابوس جميع السجناء. كان أنينه وانتفاضه يخيفان الجميع. وعندما استفاق من غيبوبته صار مختلفاً. جرائمه كانت مثل هالات تحيط برأسه. ولم يكن يحكي. كان يئنّ وينام. ويبقى مَرْمِيّاً كخرقة طوال النّهار واللّيل، والأنين يصدر من جميع أنحائه، والبقع البيضاء تغطّيه. وكان يأكل مرّة في اليوم. المساجين كانوا يجلبون له حصّته من الطعام التي يأكلها في السّادسة مساء. ينهض، يذهب بتثاقل إلى الحمّام، يجلس في الزاوية التي لا يشاركه فيها أحد، يأكل وتبدأ آلامه. ينتهي من الأكل ويرتفع الأنين. ثمّ نقلوه إلى الغرفة الجديدة.

جاء أبو أحمد وأخبره.

أمسكه أبو أحمد من ذراعه اليمنى وأبلغه أن إدارة السّجن قرّرت

نقله إلى غرفة أفضل، وأنَّه سيتمتّع بحقّ الزيارات بشكل مختلف. نظر إليه حنّا بعينيه البيضاوين وتمتم كلمات غير مفهومة. فحنّا لم يكن يتوقّع زيارة أحد، وهو لا يريد أن ينتقل إلى مكان جديد، فالأمر سيّان بالنّسبة له، كان يرى الموت بعينيه وينتظره.

قال لأبي أحمد إنَّه لا يريد أن ينقل. «ما بقى تحرز».

«كيف يا حنّا، المعاملة هونيك أفضل، وبكرا بتشوف».

«ما بدّي، قلتلّك ما بدّي. أنا مبسوط هون».

تراجع أبو أحمد إلى الوراء وخاف. هذه هي المرّة الأولى التي يرى فيها السجناء أبو أحمد خائفاً. تراجع، وبدل أن يهجم ويبدأ حفلة الضرب كالعادة، خرج من القاووش ورجع ومعه أربعة عساكر نظر إليهم حنّا بلامبالاة. نهره أحد العساكر بعصا يحملها. استعدّ الجميع للمعركة. اعتقد السجناء أنَّ جريمة ستحصل في السجن، فهذا المجرم الكبير لن يقبل الإهانة. لكن حنّا بدلاً من أن يهجم ويضرب العسكري جثا على الأرض. مدَّ يديه إلى الأمام وصار يدبدب ويدور حول نفسه وكأنَّه حيوان، ثمّ خرج. توجّه وهو يدبدب إلى باب القاووش وخرج منه. وبدل أن يضحك السجناء خيّم الصّمت عليهم، ولفّهم الوجوم والخوف. حتّى أبو أحمد، وحش السجن، كاد يبكي.

«مدري شو عملوا فيه، الله يستر».

العسكري الذي نهره بالعصا تراجع إلى الوراء وأسند رأسه إلى الحائط، وغطّى وجهه بيديه.

كانوا ثلاثة رجال في غرفة صغيرة. نام منير سلوان وأحمد العتر في الجانب الأيمن من الغرفة، ونام حنّا على سريره الحديدي في

الجانب الأيسر. وهناك استفاق حنّا من غيبوبته الطويلة، وعاد إنساناً.

«الفضل للمرأة»، قال أبو أحمد.

وسمحوا له وللمرأة بما لم يسمح به في سجون لبنان. صارت نورما تأتي ثلاث مرّات في الأسبوع، والغرفة تنتظر إيقاع كعبها العالي. الحياة في السّجن رتيبة ومملّة. هكذا يتذكّر السّجناء الأيّام الطويلة التي قضوها هناك. غير أنَّ الحياة في غرفة هذا الثلاثي لم تكن كذلك. والذي كسر رتابتها ليس الذكريات بل المستقبل. طبعاً رويت جميع حكايات الماضي. منير وأحمد عاملا حنّا باعتباره ميتاً، فرويا له جميع حكايات المهنة. وكان يستمع إليهما بوصفه ميتاً، ويبدو أنّ ذاكرة الأموات أفضل من ذاكرة الأحياء. تحوّل حنّا إلى ذاكرة تبتلع كلّ شيء، وأعدَّ نفسه جيّداً لتلك اللّحظة الرّهيبة، لحظة اللّقاء بالريّس سامي. لم يكن يشكّ بأنَّ مار الياس الحيّ سوف ينقذه من حبل المشنقة. وكان يحلم بالثّعابين في اللّيل. وقد طمأنه منير أنَّ الثّعابين لا معنى لها، ويجب أن لا يخاف منها، لأنَّها رمز للحبل الذي سيلتفّ حول عنقه.

«بدال ما تطمّني، خوّفتني»، قال حنّا.

«ليش أنت بتخاف من الموت»، سأل منير.

«لا، بخاف من الحبل، بخاف انوجع».

«بقولوا الواحد ما بينوجع، شي بيسحبوا الكرسي من تحته، وجسمه بيذندل، بيغمى، وما بحسّ بشي»، قال أحمد.

«وبقولوا كمان أنّه قبل ما يغمى يحسّ بلذّة جنسيّة، وبيجي ضهرو»، قال منير.

«أنا ما بدّي هاللّذّة، نورما بتكفّي».

ضحكوا. وحنّا صار يخاف الثعابين والمنامات، أصبح نومه متقطّعاً، ينهض ثلاث مرّات في اللّيل، يمشي في الغرفة، والسجينان الآخران يتناومان خوفاً من قضاء اللّيل إلى جانبه.

ينهض في الرّابعة صباحاً ويبدأ القراءة بصوت مرتفع، ثمَّ يصلّي. مرّة طلب من أحمد أن يعلّمه الصّلاة على الطّريقة الإسلاميّة، وقال له «ما بعرف، بكرا يمكن يطلع معكم حقّ، علّمني كيف بتصلّوا»، وضحك طويلاً وكأنَّه روى نكتة. وكاد يحصل اشتباك بالأيدي بين حنّا وأحمد، لو لم يتدخّل منير، ويبدأ برواية حكاية «الجكوار» التي قادتهما إلى السجن.

منير يعتقد أنَّ العمليّة مدبّرة من قبل الريّس. الريّس سامي سلّمهما تسليماً كي يغطّي على عمليّة كبيرة قام بها بمعزل عن شريكه الكولونيل. كان موكب سيّارات «الجكوار» ينحدر من ضهر البيدر محمّلاً ستين كيلو حشيشة، من النّوع الذّي يوزّع للاستهلاك المحلّي. وهذه عمليّات صغيرة لم يكن يشارك فيها منير أو أحمد، بل كانت تترك للمهرّبين المتمرّنين. سامي الخوري أمر بأن يكون منير وأحمد على رأس العمليّة. وبعد ثلاثمئة متر من مخفر الشّرطة في ضهر البيدر، أوقفتهم دوريّة من رجال مكافحة المخدّرات. فتحوا صناديق السيّارات الثلاث فلم يجدوا شيئاً. بحث رجال المكافحة عن المخابئ السرّيّة في السّيّارات فانكشفت العمليّة.

الريّس بعث لهما أن يصمدا، وأنَّ كلّ شيء بأوانه، وطلب إليهما عدم استقبال الزوّار. وعلى أيّة حال لم يكن هناك من زوّار. والدة منير زارته ثلاث مرّات ثمّ اختفت، أمّا والد أحمد فقد تبرّأ منه في

الصّحف معلناً أنّه جلب العار للعائلة. وكان السجينان يعيشان في عالم الذكريات الرّتيب حين أطلَّ حنّا وقلب حياتهما. سوف يقول أبو أحمد بعد الجريمة إنَّ الفتنة هي المرأة، «وأنَّ كيدهنّ عظيم». وسوف يستشهد منير الشمع، بعد إحالته على المجلس التأديبي الذي أمر بنقله إلى سجن «حلبا» في «عكّار»، بجميع الكتب المقدّسة ليدافع عن نفسه ضد تهمة الرشوة، ويثبت أنَّه ليس مسؤولاً عن شرور المرأة، لأنَّ «المرأة شرّ كلّها، وشرّ ما فيها أنّه لابدّ منها»، كما قال الإمام علي كرّم الله وجهه. وسوف يتقرّر الإسراع في تنفيذ الحكم بإعدام حنّا.

ماذا جرى؟

عالم السجون مليء بالمشاحنات اليوميّة التي تنتهي عادة بعقوبات طفيفة بحقّ المشاغبين. السجناء يتعاركون ويتصالحون، ويبقى كلّ شيء في إطاره دون مشكلة. منير وأحمد كانا يلعبان الورق دائماً. أحدهما يخسر والثاني يربح. لكنّ الجميع كان يشارك الرّابح، لأنَّ المراهنة تكون على كيلو لحم مشوي وقنينة عرق وسكرة في الحبس. هما يلعبان، وحنّا يأكل ويسكر.

كان حنّا يأكل كثلاثة رجال، صار بطنه بلا قعر، ولم يعد يشعر بالامتلاء. يأكل ولا يشبع، يشرب ولا يسكر، يغنّي ولا يفرح، وصار مليئاً بالشّهوات. يهتاج عند أوّل نكتة، ويوحي بأنَّه سيقوم بمضاجعة الرّجلين معاً. كان انتفاخه الذي لن يزول يوحي بأنّه قويّ البنية، وكان مجيء نورما يوحي بأنّه «غول جنسي»، كما سمّاه منير. في تلك الغرفة تحوّلت دعسات نورما إلى الموضوع كلّه.

لماذا سيطر هذا المناخ الجنسي على غرفة السّجن؟

هل لأنَّ ذكريات الملفوف والطائرة والجكوار انتهت؟ هل لأنَّ الرّجلين اللّذين عاشا مع حنّا أيّامهما الأخيرة، لم يكونا يملكان ذكريات تكفي لملء الغرفة بالحكايات؟

حنّا قال لزوجته إنَّ ذكريات يوم واحد تكفي لقضاء العمر كلّه في السّجن.

مرّة واحدة تحوّل حنّا إلى إنسان مع زوجته. كان ذلك بعد اختفاء الريّس وقراره اعتزال التهريب والعودة إلى مهنته الأصليّة كإسكافي. قال حنّا إنَّ ذكريات يوم واحد تكفي لقضاء العمر كلّه في السّجن. قال لها إنَّه عاش مع صورة ذلك اليوم الواحد من حياة جدّه المسكين.

خلال الحرب العالميّة الأولى لم يكن حنّا قد ولد بعد، فقد ولد عام ١٩٢٠، وهي السنة التي أعلن فيها الجنرال غورو باسم الجيوش الفرنسيّة تأسيس دولة لبنان الكبير. روى حنّا كيف بدأ عمله كإسكافي وهو في التاسعة من العمر في دكّان عمّه الكبير جرجي. لا يعلم حنّا كيف وقع اختيار أمّه لهذه المهنة، هل لأنَّ العمّ كان بحاجة إلى صبي يعمل عنده، أم لأنَّ الأمّ التي قرّرت أن لا تتزوّج بعد وفاة والد حنّا بالحمّى، وجدت أنَّ أفضل مهنة هي مهنة الجدّ التي تسري في دم الطّفل.

قال حنّا لزوجته إنَّه لا يستطيع نسيان ذلك النّهار. الغريب أنّه قال إنَّه يذكر ذلك اليوم مع أنَّه ليس متأكّداً من أنَّه عاشه. جدّته روته على طريقتها، وحوّلته إلى ذكرى.

قال لزوجته إنَّه عاش أيّاماً طويلة في السجن، وهو يتذكّر ذلك

اليوم، الذي يحيّرني، قال، إنَّه شمّ الرّائحة نفسها. يقول حنّا إنَّ جدّته الست ملكة أخذته إلى هناك. أمسكته من يده وركبا سيّارة أجرة، وتوقّفا أمام مستشفى الولادة الفرنسي، ومشيا باتّجاه منزل المرأة. رأى جدّه منتفخاً وسط الشّارع. أنا لم أره، قال حنّا، لكن جدّتي كانت تبكي والمرأة تبكي. قالت المرأة إنَّها رأت الرّجل منتفخاً ونائماً وسط الشّارع الترابيّ الذي يتفرّع من طريق «الشّام» ويتّجه صعوداً إلى «الأشرفيّة». تقدّمت منه ورشّت عليه الماء، وجلبت له كسرة خبز، لكنَّه لم يستطع أن يأكل.

«كأنَّه ما كان في يفتَح عيونه. كان في شي متل العمش الأصفر السّميك فوق عيونه، كأنَّه صمغ».

«جرّبتي تطعميه؟» سألت ملكة.

«جرّبت، مسكت الخبزة وبلّيتها بالميّ، وحاولت أعطيه شقف صغيرة، بس ما قدر».

قالت إنَّ الاحتضار طال، والرّجل تعذّب كثيراً قبل أن تخرج روحه من جسمه. كانت المرأة تسكن بيتاً محاطاً بأشجار الياسمين ومسوّراً. امرأة بيضاء وشعرها أبيض، وتعقده خلف عنقها على شكل كعكة، وتحكي بيديها.

«المرأة تبكي، وجدّتي تبكي، وأنا أبكي»، قال حنّا.

ثمَّ نهضت الست ملكة عن الكنباية العتيقة، وبدأت تضرب وجهها بيديها، وتلعن السّاعة التي قبلت فيها أن تهرب من المجاعة، إلى أهلها في قرية «نيحا» في البقاع.

«هو كان بدُّو هيك»، قالت ملكة.

«هيدا قدر، لا حول ولا قوّة»، قالت المرأة.

قال حنّا إنَّه رأى الرّجل الكهل منفتخاً بالجوع وسط ذلك الشّارع الترابي، وشمّ رائحته.

«عشت في الزنزانة وأنا عمّ بتذكّر، يا لطيف كيف الذاكرة ما بتخلص».

حنّا لا يعرف لماذا كان الرّجلان وكأنَّهما بلا ذاكرة. أخبراه حكايات كثيرة، لكنّها لم تكن تكفي الزنزانة، فأمضيا الوقت في المشاحنات. وحنّا ينظر إليهما بشفقة واستعلاء، يقرأ في الكتاب، ويتذكّر الجثّة المنتفخة، ويرى بياض عينيه يفترس سوادهما.

سأل إبراهيم نصّار عمّته عن حوادث ١٨٦٠.

«شو بعرّفني»، قالت العمّة.

روى لها إبراهيم وكأنَّه يسمّع من كتاب. كان قد قرأ رواية فيها حكايات حرب ١٨٦٠، وكيف كانت المذابح تقود النّاس إلى اللاّشيء. الكتاب لم يكن رواية، كان اسمه «مجمع المسرّات»، لشاكر الخوري. جمع فيه المؤلّف كلّ المآسي وأسماها مسرّات.

والعمّة تقول إنَّ العمر يمضي، وعليه أن يتزوّج، ويملأ لها حياتها بيعقوب الصّغير.

«بس أوعا هيدي العاطلة، نورما سيرتها عاطلة، ما بدّي ياها تفوت على بيتي».

وكان إبراهيم نصّار يشعر أنَّ العمر يمضي، وجد نفسه فجأة في الأربعين، وبدأت خيانات الجسد. صار يكره الخُضَر والحبوب التي يبيعها في دكّانه. همّه الوحيد تركّز على سباق الخيل. يشتري جرائد السّباق ويحتفظ بها، ويقضي ساعات طويلة يحلّل نتائج الأشواط

الثمانية عشرة التي تجري يومي السّبت والأحد، وأصبح صديقاً للسّائسين والفرسان. وبدأت صداقته مع الجوكي فارس. وفارس فتى في الخامسة عشرة، من قرية «دير ميماس»، في الجنوب اللّبناني المحاذي للحدود مع إسرائيل. فارس كان فارساً، ولم يكن هذا اسمه الحقيقي. هو اختار اسمه، وقال لإبراهيم إنَّ على الإنسان عندما يختار مهنته أن يختار اسماً جديداً. قال لفارس إنَّه يفكّر في اقتناء ثلاثة خيول، وطلب نصيحته. قرّر أن يفتح اسطبلاً ويغيّر اسمه. لكنَّه كان متردّداً، يقرّر ثمّ يغيّر رأيه، ويخاف أن يصرف اللّيرات الذهبيّة المخبّأة تحت بلاط غرفة أبيه. كان يتجاذبه اتّجاهان، السّفر وشراء الاسطبل. وفي النهاية رجحت كفّة السّفر، لكنّه لم يسافر كما نعلم. قرار السّفر لم يؤثّر على زياراته الدائمة لاسطبل فارس، وصداقتهما التي تجسّدت في جلوس إبراهيم طويلاً داخل الاسطبل، ومراقبته عمل السّائس في تنظيف الأحصنة، والتفرّج على فارس كيف يفتح لها الهواء. يسمّونها في ميدان السباق «فتحة نفس»، وهي التدريب الصباحي للخيول. لكن إبراهيم كان يسميّها «فتحة هواء». كان يراقب الأحصنة وهي تفتح أنوفها وتركض، ورائحة عرق الخيل يملأ المكان.

كلّ هذا انتهى الآن إلى الأبد.

وجد إبراهيم نفسه في بداية الحرب الأهليّة الطويلة التي بدأت عام ١٩٧٥ ولم تنته بالنّسبة له، لأنَّه مات في بداياتها.

أمّا نورما، فلا أحد يعلم. نورما اختفت بعد ذلك اليوم الذي رآها فيه حنّا واقفة في الشّارع.

وحنّا يرفض أن يتكلّم. الحرب حوّلته إلى أخرس.

ما سرّ الجريمة التي حدثت في حبس الرّمل عام ١٩٤٨؟
لماذا قتل منير سلوان صديقه أحمد العتر؟

هل كان انطباع الريّس سامي عن الجريمة التي دبّرها حنّا صحيحاً؟
أم الصحيح هو كلام حنّا أمام المحقّق؟

هذه المرّة لم يعذّبوه، قال له المحقّق إنَّه لا يملك شيئاً يخسره. «إذا حكيت منأجّل الإعدام كام يوم، وإذا ما حكيت منسرّعه، كلّها كم يوم، بسّ القضيّة قضيّة ضمير، قول الحقيقة حتّى تواجه ربّك وضميرك مرتاح».

«أنا ضميري مرتاح، ما فيّ شي مرتاح إلاَّ ضميري».
«أنت أدرى بمصلحتك».

حنّا قال للمحقّق تلك الجملة التي ردّدها محامي الدّفاع عن منير سلوان، وهو يحاول إبعاد حبل المشنقة عن عنق موكّله.

«يا سيّدي القاضي، تسأل لماذا قتل موكّلي صديقه، وتطلب منه ومنّي الجواب، والجواب تجده يا سيّدي في جميع الكتب السماويّة المنزلة. لماذا قتل قايين أخاه هابيل. قتله حسداً تقول الكتب. ولماذا الحسد نسأل؟ لأنَّ القضاء يا سيّدي. إنَّه قضاء الله. فلو لم يقتل قايين أخاه لقتل هابيل أخاه».

يومها أُعجبت الصحف بكلام المحامي، وكتب أحد المعلّقين مقالاً يطالب فيه بإعدام قايين الجديد. «فيتصالح الأخوان في الآخرة، لأنَّهما سيكونان في مكان واحد، وليس مثل قايين وهابيل اللذين افترقا في الآخرة، فذهب الأوَّل إلى النَّار، والثاني إلى الجنّة. في حالتنا القاتل والقتيل في النّار، وإعدام منير سلوان سوف يسمح للعدالة الإلّهيّة بأن تقرّر مصيرهما».

حنّا قالها بشكل آخر.

«شو بعرّفني يا سيدنا، بتسألني ليش وأنت أدرى، ليش قايين قتل خيّـه، لأنَّه كان بخلقته كلّ يوم. انفلق، زهق، ما عاد الو جلادة. نفس الحكي، نفس النكت، نفس السماجة، فقتله».

«والبنت»، سأل المحقّق.

«أيّ بنت؟»

«نورما، شو علاقة نورما بالموضوع، هي اعترفت».

«بشو؟».

«اعترفت أنَّك كنت عم بتكذب عليهم».

«ولو يا سيدنا بتصدّق بنت مقطوعة وما بتصدّقني. هنّي كان بدّهم نورما، وأنا قلتلّلهم تكرموا. شو هي نورما ملك بيّي. أنت ما بتآمن بحرّيّة المرأة، أنا بآمن. كانت قصّة حتّى نقطّع فيها الوقت. كنت عم بتسلّى وسلّي الشباب. شو بدّك ياني أقعد وأنطر الموت. الموت بيجي وقت بقرّر فخامة الرئيس، وفخامته بيمضي وقت الله بيلهمه، ولا تدري نفس بأيّ أرض تموت. هيك علّمني أحمد الله يرحمه، لعبنا وتسلّينا، بس هو قايين كان بدّو يعمل جريمة لأنَّه انفلق».

«طيِّب ليش ما قتلك أنت».

«اسأله، شو بعرّفني، يمكن لأنَّه العمليّة كانت راحت بعزقا، أنا ميّت على كلّ حال، شو كان ربح».

«بس هو بقول إنَّه قتل دفاعاً عن النّفس، وأنَّ أحمد هجم عليه، والخناقة بلّشت منشان نورما».

«يمكن، أنا كنت نايم وما شفت ولا سمعت. مبلى سمعت

بالآخر، صريخ وشخير، العمى تاري الواحد بيشخّر وهو عم بموت، يا ربّي تنجّينا».

«والحقيقة يا حنّا».

«هيدي الحقيقة يا سيدنا».

والحقيقة أنَّ الجريمة حصلت بسبب نورما. كان موعد الإعدام قد اقترب. جاء مدير السّجن وأبلغ حنّا أنَّ المسألة صارت مسألة أيّام، وأنَّه سيتمّ نقله خلال أسبوع إلى زنزانة منفردة، وسأل إذا كان يريد مقابلة الأب سرجيوس، وأراه التماساً خطّيّاً من الكاهن يطلب فيه مقابلة المجرم قبل إعدامه. رفض حنّا، شعر أنَّ الكاهن خدعه، وأنَّ وعود مار الياس ذهبت هباء، وأنَّه لم يعد بحاجة إلى الصّلاة.

قال حنّا لمدير الحبس إنَّه يريد طلبه الأخير.

«هونيك»، قال المدير.

«وين هونيك»؟

«هونيك، تحت الحبل، من هلّق لوقتها شو بقدر إخدمك»؟

«نورما»، قال حنّا. بدّي نورما كلّ يوم.

«تكرم»، قال المدير.

عاد حنّا إلى الغرفة مشرقاً. «كان في منتهى السّعادة»، قال منير. «جاء وهو يضحك، وأخبرنا أنَّ إدارة السجن سمحت لنورما أن تزوره كلّ يوم، بدل ثلاث مرّات في الأسبوع. فتح قنينة عرق وشربنا، وروى لنا عن طرقه المختلفة في المضاجعة ثمَّ نام».

«كنت سكران»، أجاب منير على سؤال المحقّق، «لا، قبل ما ينام قعد هو وأحمد لوحدهم على التخت، وصاروا يوشوشوا، أحمد أعطاه ورقة، قلت أكيد هيدا المكتوب، وسمعتهم عم يضحكوا، حنّا

نام وضلّيت أنا وأحمد نسكر. أنا هدّدته، لا يا أحمد، نحن شركة ومنضلّ شركة. قام قال لا، قال إنَّه المرا متل البارودة، والواحد ما بيشارك باتنين المرا والبارودة. وصار يحكي متل يلّلي الله عاطيهم. ساعتها كرهته، حسّيت أنَّه شلّحني المرا، وقبل كان شلّحني المعلّم، ويمكن كان عارف سرّ التهريبة، يمكن، أي، تذكّرت، كأنَّه هو دلّ رجال المكافحة على المخابئ السّرّيّة بسيّارة «الجكوار»، فقتلته. لا، هو بلّش، ما بعرف شو قلّلي، سبّني وهجم عليّي، ما بعرف، يلّلي بعرفوا، استغفر الله العليّ العظيم، لقيت حالي راكب عليه وعم شدّ وهو عم يصرخ. الحقّ على حنّا، حنّا هو المجرم، لو قال شي، لو قام، لو جرّب يشيلني عنه، يا سيدنا لقيت حالي متل المضبوع، كنت مضبوع. أنا بريء، قتلته مش عن سابق تصوّر وتصميم، قتلته بالغلط، ما كان قصدي، يا سيدنا اعتبر أنَّه وقع، اعتبر أنَّه حنّا يلّلي قتله، قتل كلّ هالنسوان، واحد بالزايد شو بأثّر، أنا ما بدّي موت، دخيلكم».

فكّر المحقّق أنَّ منير جبان، ولا يستحقّ الشفقة.

وفي المحكمة، أمضى منير الوقت كلّه وهو على شفير الانهيار. كأنَّه معتوه، يتكلّم ويبكي، ويقول إنَّه حزين على أحمد العتر.

«هيدا صديقي الوحيد يا سيدنا، وأنا عم ببكي عليه».

«إنَّه يبكي على نفسه»، صرخ المدّعي العام.

وحين سمع الحكم بالإعدام سقط مَغْشيّاً عليه. وأغمي عليه مرّة ثانية وهم يقودونه إلى المشنقة. سقط أرضاً فاضطرّ رجال الدّرك إلى حمله، وأعدم وهو مغمى عليه، وهذا مخالف للقوانين. فالقانون

يقول إنَّه يجب إيقاظ المحكموم إذا أغمي عليه، لأنَّ الإنسان يجب أن يُعدم وهو في كامل وعيه.

منير سلوان أعدم وهو غائب عن الوعي، وكان حنّا يقف بين المتفرّجين، والدموع محبوسة في عينيه.

قال حنّا إنَّه بكى.

قال وهو يقف وحيداً بين المتفرّجين، أمام باحة قصر العدل، إنَّ الموت عدل، وأنَّ حبل المشنقة يلاحقه كلّ يوم.

بدأت الحكاية في «عين كسرين».

تبعد «عين كسرين» عشرين كيلومتراً عن بيروت. قرية صغيرة ترتفع حوالي أربعمئة متر، وتشرف على البحر. إنَّها قرية البحر، كما كان يعقوب نصّار يحبّ أن يسمّيها، وهو يجلس على السطيحة أمام بيته المحاط بشجر اللّوز وغابة السمّاق، ويشعر وكأنّه يسبح في البحر، كأنَّه على ظهر سفينة وسط المياه، يدخّن نارجيلته ويتأمّل الحياة.

من أين ركبته فكرة السّفر المفاجئ؟ لا أحد يدري. هل يعود السّبب إلى وفاة زوجته وشعوره بالوحدة، أم هو منام الثعابين؟

كان يعقوب نصّار يذهب إلى القرية صيفاً كي يشرف على الأراضي التي ورثها عن أجداده. ولم يكن يعتني بالزراعة. كان نبيل عازار، صاحب آخر كيرخانة حرير في المنطقة، مكلّفاً بالإشراف عليها. لم يكن آل نصّار يأخذون من الأرض سوى تنكتي زيت زيتون مرّة كلّ سنتين، وخمسة كيلو سمّاق، وسلّة لوز أخضر سنويّاً. أمّا باقي الغلّة فكانت تذهب هدراً، أو يهيمن عليها نبيل عازار.

لم تكن غلّة الأرض تعني شيئاً بالنّسبة ليعقوب نصّار. فهو ابن بيروت، ولا يحبّ القرى ولا الزراعة. كان يعلم أنَّ الأرض الشّاسعة التي ورثها عن أبيه تساوي ثروة، وكان متأكّداً من أنَّ الثروة الحقيقيّة التي تملكها العائلة هي المقبرة. هناك يوجد الكنز الذهبي الذي دفن

مع النّساء. إبراهيم الابن لم يكن متأكّداً من حكاية الكنز، فالمقابر نبشت في الحرب الأهليّة التي جرت عام ١٨٦٠ وقادت إلى هجرة العائلة بشكل شبه نهائي من القرية. وعندما أُعيدت المقابر إلى أصحابها، بعد دخول الجيش الفرنسي إلى لبنان من أجل حماية المسيحيّين كما قيل يومها، لم يتحدّث أحد عن الكنز.

و«عين كسرين» لا تتمتّع بأيّة خصائص مميِّزة، ولا نعثر فيها على آثار تاريخيّة كالقرى المجاورة التي وجدت فيها نواويس فينيقيّة. حتّى الاسم لا نعرف أصله ومعناه بشكل دقيق. يقول كتاب «معجم أسماء المدن والقرى اللّبنانيّة» لمؤلِّفه أنيس فريحة، وهو كتاب يعيد أسماء المدن والقرى إلى أصولها السريانيّة، وهي اللّغة التي كانت سائدة في سوريا ولبنان وفلسطين قبل اللّغة العربيّة، يقول الكتاب إنَّه لا يوجد أثر لجذر «كسر» في اللّغة السريانيّة، لكن هذا لا يمنع وجود جذر فينيقي، «كسر» بمعنى نقب الأرض وقلبها، العامّة تقول كسر الأرض، وأرض مكسورة أي منقوبة. من المرجّح أن يكون الاسم مشتقّاً من جذر «كشر»، ويفيد الحذق والمهارة في العمل والصناعة. أمّا التفسير العربي لكلمة «كسرين»، فيعتبر أنَّ الكلمة مأخوذة من «الكسر»، و«الكسر» هو وطن في وسط «حضرموت» في اليمن، كما جاء في كتاب فرج الله ديب صالح «اليمن هي الأصل».

تاريخ القرية ليس مهمّاً، إنَّها قرية بلا تاريخ، وحكاياتها لا تحتمل التصديق. إبراهيم نصّار وجد أوراقاً مبهمة في الصندوق المليء بالنفتالين، الأوراق كانت شبه ممزّقة. ومن الصّعب قراءتها. لكن إبراهيم استطاع أن يميّز ما خُيّل إليه أنَّه وصيّة الجدّ الأكبر. لم يجد

الوصيّة كاملة، فالأوراق كانت مهترئة. إبراهيم استخرج من صندوق النفتالين مزقاً قرأ فيها هذا الوصف للمقبرة.

«. . . «المقبرة الثالثة بعد مقبرة جرمانوس، من هونيك. . . . . النسوان. . . . . لازم لا أحد يفتحها أو يندفن. . . . . . وقد. . (هنا مقطع طويل غير صالح للقراءة) الاحتراز من كلام النّاس. . . . أمام النسوان لأنَّ النسوان. . . ».

ثمَّ قرأ شيئاً عن الفرج، هل الكلمة فرج أم فرح. هل كان اسم الجدّة فرح؟

قرّر إبراهيم أن يصعد إلى القرية ويبحث عن قبر جرمانوس. لكنَّ الحرب الأهليّة بدأت قبل أن ينفّذ قراره.

لم يكن إبراهيم نصّار يعرف «عين كسرين»، فالقرية بالنّسبة له تشبه الطّلال. انقطع عن الذهاب إليها عندما كان في العاشرة، يوم باع والده قطعة أرض استعداداً للسّفر إلى كولومبيا. كان يأخذ ابنه مرّة في العام، يوم عيد السيّدة العذراء، ويحتفل بالعيد في القرية، مع أبناء عمومته، يشربون شراب الورد ويأكلون التمريّة في باحة الكنيسة بانتظار أن ينتهي الكاهن من مراسم الصّلاة، ثمّ يجتمعون في منزل ابن عمّه نجيب، يشربون العرق ويأكلون «الهريسة» التي لا تصنع إلاَّ في عيد رقاد السيّدة العذراء. وكان إبراهيم يحبّ «الهريسة» المصنوعة من ذلك المزج الغريب بين القمح واللّحم والعظم. لا يذكر إبراهيم أنَّ الرّجال كانوا وهم يسكرون ويأكلون يتحدَّثون عن المقابر، أو يتلفّظون باسم «جرمانوس».

لم يبحث إبراهيم عن المقبرة، وكان في أعماقه يعتقد أنَّها أسطورة

أخرى تضاف إلى الحكايات الوهميّة التي تربّى في وسطها. ولأنَّه مثل «نصف ديك» ليس رجلاً ولا طفلاً، كما كانت تسمّيه عمّته، فلقد صبغ التردّد حياته في كلّ نواحيها. وعندما أصابته لوثة الهجرة خافت العمّة. رأته كأنَّها ترى والده، واكتشفت أنَّ هذا النصف رجل يستطيع في النهاية أن يقرّر مثل الرّجال.

«هلّق بعد ما راح ساقي وسمّاقي، بدّك ياني سافر، الله يرحمك يا يعقوب أنت متل بيّك، وبالآخر مش راح تسافر».

روت العمّة كيف أصيب الأب بلوثة الهجرة. فجأة انقلب رأساً على عقب، ولم يعد يستطيع النّوم. «ما بعرف شو صار، متل كيس انقلب من جوّاته، كأنّي ما بعرف، ما عاد ينام، أوعا بنصف اللّيل، وشوفو قاعد بالدّار، عم بدخّن ويحكي مع حاله. كان بدّو يخلص، قلّلي بدّي إخلص، صار لازم نمشي، شو إلنا بهالبلاد، بكولومبيا النّاس بتلمّ دهب من الشّوارع، وهونيك قرايبينا كتار، راحوا من شي سبعين سنة، وكلّ سنة بروح حداً، العيلة كلّها صارت هونيك، ما بقي بعين كسرين إلاّ يلّلي ما عندو طموح، وأنا شو عم بعمل هون، لازم أتزوّج وخلّف ولاد ويصير معي مصاري، وأنسى».

لم تكن سارة تعرف ماذا يريد أن ينسى، فهذا الأخ هو كلّ ما تبقّى لها. إخوتها سافروا جميعاً قبل وفاة والدهم إبراهيم، يعقوب بقي وبقيت هي من أجله ومن أجل والده الكهل. عاشت معه وزوجته ابنة الجاهل. اختارت الفتاة وزارت أهلها وعقدت الصّفقة دون أن يعرف.

لا تستطيع سارة أن تصف ماذا جرى لها حين دخلت مريم الجاهل بيتهم، وكيف صارت الأرض ترتجف تحتها عندما أقفل شقيقها باب

غرفته ثلاثة أيّام وبقي فيها لا يغادرها، وهي تستمع إلى صراخ الجنس الذي كانت تصدره هذه المرأة.

يومها، شعرت سارة أنَّ حياتها ذهبت هدراً، فهي بقيت في لبنان من أجل يعقوب، لم تهاجر أو تتزوّج كي تبقى إلى جانبه. وها هو يصبح ملكاً لامرأة أخرى، ترى في عينيه خضوعاً، وتكتشف أنّه صار ينفر منها. فجأة صار هذا البيت بسقفه العالي وغرفه الفسيحة ضيّقاً، وبدأت سارة تقضي معظم أوقاتها في الحديقة، تعتني بالأشجار، وتعشّب الأرض، وتزرع البقول. حتّى في شتاء بيروت البارد والرّطب، كانت بعد أن تنتهي من الطّبخ، تخرج وتجلس على سطيحة المنزل المشرفة على الحديقة. كان منظرها مضحكاً. تحوّلت إلى امرأة عجوز، مع أنَّها كانت في بداية الثلاثينات. تلبس معطفاً سميكاً، وتضع قبّعة صوفيّة، وتجلس على السطيحة وحيدة.

لم يحاول يعقوب أن يتفهّم وضع شقيقته. الأرجح أنَّه لم يلاحظها، فهو منذ زواجه لم يعد يستشيرها في شيء. تابعت سارة عملها المنزلي وكأنَّ شيئاً لم يكن. مريم الجاهل لم تتدخَّل في أمور المطبخ والجلي وشؤون المنزل الأخرى وكأنَّها كانت ضيفة، فبقيت سارة سيِّدة البيت، ولكنَّها كانت سيِّدة وحيدة.

في شهر زواجها الثاني دخلت مريم الجاهل دوّامة الحمل والوَحَم. كان وَحَمُها صعباً، تتقيّأ وتشعر بالدوار. وصارت تقضي أغلب أوقاتها في منزل ذويها. وسارة تطبخ وتأكل وحدها لأنَّ يعقوب يقضي معظم أوقاته في منزل أهل زوجته.

وولد إبراهيم، وانقلب كلّ شيء. سارة أخذت الطّفل وربّته وكأنّه ابنها. الزّوجة لم تبدِ أيّة رغبة في الصّراع مع العمّة على الولد.

اقتسمت المرأتان البيت بشكل عادل، كلّ واحدة أخذت رجلها واكتفت به. سارة أخذت إبراهيم الصّغير، ومريم اكتفت بالزّوج، وعادت الرتابة تسيطر على البيت.

لم تنكسر الرتابة إلاّ مرّتين:

المرّة الأولى، حين مرضت الزّوجة ذلك المرض الطّويل الرّهيب الذي مزّقها بالأوجاع.

والمرّة الثانية، حين قرّر يعقوب الهجرة إلى كولومبيا.

حين مرضت الزوجة تحوّلت سارة إلى كلّ شيء في البيت، كان يعقوب يهرب من زوجته وكأنّه يخاف أن تنتقل إليه عدوى السرطان. لا تعرف سارة ماذا حلّ بالرّجل، لكأنّه أصيب بالرّعب. منذ عودة مريم من المستشفى، وبعد أن أجريت لها كل تلك العمليّات الجراحيّة، فهم يعقوب أنَّ المرأة انتهت. قال له الطبيب «خدها على البيت وخلّليها تموت على رواق، حرام دفع المصاري، السّرطان منتشر بكلّ جسمها، وما بقى في أمل». أخذها إلى البيت، وصار ينام في غرفة ابنه إبراهيم، ويخاف دخول غرفتها. وسارة كانت في كلّ مكان، تنام في غرفة المريضة، تهتمّ بالطّفل وتطبخ وتنفخ ورجعت صبيّة. صحيح أنّها كانت تتبرّم وتكثر من النقّ والتنهّد أمام أشقّاء مريم الذين كانوا يأتون لزيارتها مرّة في الأسبوع، ولكنّها تحوّلت امرأة أخرى. عاد يعقوب إليها، يشرب معها فنجان القهوة الصباحي الذي كانت تضع فيه الكثير من ماء الزهر، وصار يستشيرها في كلّ شيء. وماتت المرأة، وانطوت الصّفحة التي لم يبق شيء يذكّر بها سوى وجه إبراهيم الأبيض الذي يشبه وجه أمّه. ماتت المرأة وانطفأ ذكرها في البيت، وعاد كلّ شيء كما كان. فكأنَّ يعقوب نصّار لم

يتزوّج، وكأنَّ هذا الطّفل الذي يحبو في البيت ليس ابنه. كان يعقوب حين يتكلّم مع أخته عن ابنه يقول لها «ابنك». وكانت سعيدة بأن تكون الأمّ والأخت والزوجة.

وعندما قرّر يعقوب الهجرة انقلب الرّجل. يعقوب لم يعد يعقوب. يومها تغيّر يعقوب وصار رجلاً. لم تكن سارة ترى في شقيقها رجلاً كما ترى النّساء الرّجال، كانت تعامله وكأنّه امرأة أخرى تسكن معها البيت. وعندما اتّخذ ذلك القرار تحوّل إلى رجل. وسارة محتارة في أمر هذا القرار. فمسألة الهجرة كان قد حسمها إبراهيم الأب عندما قرّر أن يبقى ورفض أن يلتحق بأولاده في كولومبيا، وكتب كلّ الميراث ليعقوب شرط أن لا يهاجر. وافق يعقوب على الشّرط لأنَّه كان ينوي البقاء. فيعقوب يعتقد أنَّه لم يعد هناك من مبرّر للهجرة. «الهجرة كانت مفهومة في وقتها»، قال لعائلة زوجته المسكينة عندما طلبها رسمياً للزواج. فمريم كانت الفتاة الوحيدة وسط أربعة شباب، وكان أهلها يخافون من ميل آل نصّار للهجرة. يعقوب قال لهم إنَّ الهجرة كانت مفهومة في تلك الأيّام، وأمّا اليوم فلم يعد من مبرّر لها. «في تلك الأيّام»، وروى لهم حكايات غامضة. هل من المعقول أن يعدم الرّجل بعد تلك المذبحة الرّهيبة التي ذهبت بنصف رجال عائلته. يشنق الرّجل في بيروت من أجل التوازن الطّائفي، كما قالوا، وهو بريء وخائف وفقير وجائع.

روى يعقوب الحكاية دون أن يذكر الأسماء. هل يمكن أن تروى حكاية بلا أسماء؟ حكاية آل نصّار كانت بلا أسماء. فأحد الأجداد، بعد أن نفد بجلده من مذبحة «عين كسرين»، اعتقله العساكر الأتراك

في بيـروت وجرى إعدامه بوصفه محرّضاً على الفتنة الطائفيّة. هل كـان الـرّجـل محـرِّضـاً أم كـان ضحيّـة لابـدّ منهـا مـن أجـل أن تبـدو العقوبات التي فرضها الوزير التركي فؤاد باشا متوازنة؟ لماذا أُعدم الـرّجـل؟ لا أحد يـدري، لكـن يُـروى أنّـه شنق وهـو يصطكّ من الخـوف ويتداعى.

أمّا الحكاية فهي المذبحة.

وهنا، لا توجد أيّة وثائق أو نصوص. كلّ ما هنالك هو كلام يُقال ويُنسى. كلام يُقال كي يُنسى، ولكنّه لا يُنسى لأنَّه يُقال، ويُضاف إليه ويُحذف منه، ولا أحد يعرف.

قيل، والله أعلم، إنَّ رجال عائلة النصّار كانوا يذبحون في القرية وهم هاربون في الشوارع الترابيّة الضيّقة. وكانت مذبحة. في تلك الأيّام، بين عـامي ١٨٥٨ و١٨٦٠، كـان جبـل لبنـان الجنـوبي، مـن «راشيا» و«حاصبيا» إلى «دير القمر» و«الشحّار» يغرق في الدم. وحصلت تلك المذابح التي يخجل النّاس اليوم من تذكُّرها، فوضعوها في كتاب النسيان.

ماذا جرى في «عين كسرين»؟

هل صحيح أنَّ الخوري عبد الله النصّار حرّض على الفتنة وهرب وترك النّاس يدفعون ثمن الانتقام الرّهيب؟

أم أنَّ الكاهن كان قدّيساً، ورأى في منامه الثعابين، ونبّه رجال القرية الذين سخروا منه، فهرب وتركهم. هرب إلى بيروت، ومنها ركب البحر إلى مرسيليا، ومنها إلى كولومبيا، حيث أسَّس الفرع المهاجر من العائلة، وبدأ يستدعيهم إليه.

أين الحكاية؟ وأين الحقيقة؟

روى إبراهيم الجدّ لابنه يعقوب أنَّ المذبحة بدأت في أطراف القرية. كانت «عين كسرين» خارج الحروب والمذابح التي عمّت جبل لبنان. الفلاّحون المسيحيّون كانوا خاضعين لسلطة الإقطاعيّين الدروز، ولا مبرّر للحرب. المذابح تحيط بالقرية، وأهل «عين كسرين» يذهبون إلى أعمالهم وكأنَّ شيئاً لم يكن. صباح ١٢ شباط ١٨٦٠ استفاق النّاس على مذبحة آل أبو عامر، التي تسكن في طرف القرية الجنوبي، قرب «عين عنوب». استفاقت القرية على جثث ثلاثة رجال وأربع نساء وخمسة أطفال، وكانوا جميعهم من عائلة أبو عامر. و«عين كسرين» تنقسم إلى عائلتين: عائلة أبو عامر في الجزء الجنوبي من القرية، وعائلة نصّار في الجزء الشمالي. وكانت العائلتان الكبيرتان، رغم الانتماء الديني المختلف، عائلة أبو عامر من الدروز، وعائلة نصّار من الرّوم الكاثوليك، تعيشان في ظلّ الوئام والصداقة. فرجال العائلتين يعملون في كرخانة الحرير التي يملكها الخواجة إدمون التنّير، وهو من وجهاء بيروت، ويعمل ترجماناً في القنصليّة النمساويّة. وفي الأراضي التي يملكها آل نكد. ولم يكن هناك من مبرّر للعداوة بين العائلتين. القرى المجاورة تصطبغ بالدّم الذي أغرق لبنان خلال ذلك الصّراع المرير على السّلطة بين الكنيسة المارونيّة والإقطاع الدرزي، بحيث تحوّل لبنان إلى برج بابل الصراعات الدوليّة على وراثة الإمبراطوريّة العثمانيّة. و«عين كسرين» تنام هادئة وكأنّها ليست جزءاً من لبنان.

وحصلت مذبحة آل أبو عامر.

يُقال إنَّ كاهناً من آل نصّار هو الذي قام بها أو حرّض عليها، وأنَّه اختفى في ذلك الصباح المشؤوم.

ويُقال أيضاً أنْ لا علاقة للكاهن بما جرى، فالمذبحة هي نتيجة لخلاف عائلي على ملكيّة قطعة أرض صغيرة بين فرعين من عائلة أبو عامر، وقد جرى استغلال الحرب الطائفيّة لتصفية حسابات داخليّة ضمن العائلة الواحدة.

من يصدِّق من، في تلك الأيّام، إذ كانت الدماء تغلي في العروق، والوجوه تتحوّل إلى أقنعة؟

ما جرى بعد اكتشاف المذبحة لا يوصف. هربت النّاس، وبدأت البيوت تحترق. النّار تشتعل، والنّساء والأولاد يهربون إلى الحقول ويشردون في البراري. والرّجال يذبحون بالسكاكين.

يُروى أنَّ رجلاً طعن في ظهره بسكّين فظلّ يركض حتّى وصل إلى محلّة الأوزاعي، على مدخل بيروت الجنوبي، ومات.

وكان الرّجال يترنّحون كأنَّهم يرقصون، الذّابح والمذبوح يرقصان حول الموت.

من أين جاء كلّ ذلك الموت؟

لا أحد يدري، وذكريات يعقوب ووالده وجدّه لا تفيدنا في شيء. تأتي الذكريات غائمة كأنَّها مطمورة في بئر، وتخرج وكأنَّها تنزّ من جرح قديم لم يندمل.

تستطيع سارة أن تروي عن جدّتها أمّ يعقوب. قالت الجدّة إنَّ الرّجال كانوا يصرخون كالذّئاب. قالت أمّ يعقوب لحفيدتها إنَّ صوت الرّجل وهو يقتل، يُشبه صوت الذّئب حين يعوي في اللّيل، وأنّها كانت طفلة، ولكنّها لا تنسى العواء الّذي كان يصدره الرّجال وهم يترنّحون بالموت.

الجدّة كانت تريد أن تهاجر، الجميع يحلمون بالهجرة، والبواخر المسافرة إلى ميناء «مرسيليا» الفرنسي امتلأت بالنّاس القادمين من نواحي البقاع الغربي وزحلة والجبل.

قال يعقوب لشقيق مريم، حين طلب يدها، إنّه لم يعد هناك من مبرّر للهجرة. الحروب انتهت، والفرنسيّون يحكمون لبنان، وشبح مجاعة الحرب العالميّة الأولى لن يعود.

لماذا باع يعقوب قطعة الأرض، وقرّر أن يهاجر؟

قالت سارة إنَّ السّبب هو المنام. الزوجة ليست سببه. ماتت منذ سبع سنوات وبقي كلّ شيء على حاله. وفجأة بدأ يعقوب ينهض في اللّيل، يجلس وحيداً ويدخّن، وتسرح عيناه في البعيد. وروى لشقيقته أنّه رأى منام الحيّات. قال إنّه رأى ثلاث حيّات في فراشه، استلقى في سريره فرأى ثلاث حيّات جالسات على بطونها، ورؤوسها مرفوعة إلى الأعلى، تريد أن تكلّمه. خاف، حاول أن ينهض، اقتربت منه والتفّت حول عنقه، وبدأ يختنق. قالت سارة إنَّ يعقوب روى لها منامه وهو يرتجف خوفاً، ومن يومها لم يعد قادراً على النّوم.

ذهبت سارة إلى جوليا، زوجة الطبّاخ، تستشيرها. وكانت جوليا تعرف كلّ شيء. كانت، قبل موت زوجها وهجرة ابنتها، امرأة مختلفة. تبصّر في فناجين القهوة، وتقتني كتباً عتيقة تتحدّث عن الماضي والمستقبل. سألتها سارة عن منام الحيّات فقامت جوليا إلى غرفتها وجلبت كتاباً عتيقاً فتحته وبدأت تقرأ.

«وإن رأى الحيّات في السوق وقعت الحرب، وظفر بالأعداء.

والحيّة سلطان كتوم العداوة، فإن رأى حيّةً تخرج من ذكره مرّة وترجع إليه مرّة فإنَّه يخونه. فإن رأى في عنقه حيّة فقطعها ثلاث قطع فإنَّه يطلّق امرأته ثلاثاً. ومن تحوّل حيّة يتحوّل من حال إلى حال. والحيّة امرأة، من رأى أنّه قتل حيّة على فراشه ماتت امرأته».

قرأت جوليا واستمعت سارة دون أن تفهم شيئاً، واقتنعت أنَّ تفسير ابن سيرين للمنامات ليس صحيحاً، (ابن سيرين هو اسم مؤلِّف الكتاب الذي قرأت منه جوليا) وأنَّ الحيّات معناها السفر، فوافقت مع شقيقها، وهي على أيّة حال لم تكن تملك حلاًّ آخر.

وبدأ الإعداد للسفر. رسائل إلى «بوغوتا»، مفاوضات لبيع قطعة الأرض، عجقة في البيت، يعقوب يتحدّث عن زواج محتمل من إحدى بنات عمّه هناك، ويعد سارة بأن يجد لها عريساً. وصار ينام.

وانهار كلّ شيء دفعة واحدة عندما جاءت تلك الرّسالة الغامضة التي رماها يعقوب في الصندوق، وقرّر إلغاء كلّ شيء.

«أنا متل عبد الجليل»، قال، «لعنة عبد الجليل لاحقتنا».

«مين هو عبد الجليل»، سألت سارة.

«هو يلّلي مات بالضيعة، ورجع مات ببيروت، ما بعرف، أنا ما بعرف شي».

لم يكن يعقوب يعرف شيئاً، ومات بحسرة السّفر.

هل يعرف إبراهيم نصّار من هو عبد الجليل؟

إبراهيم لم يكن معنيّاً بكلّ تلك الحكايات. قراره بالهجرة جاء لأسباب أخرى. من المرجّح أنّه قرّر السّفر بعد حادثة سباق الخيل،

ولا علاقة لنورما عبد المسيح بالموضوع. فإبراهيم كان في تلك الفترة من حياته ممتلئاً بالجوكي عبّاس. مقتل عبّاس كان واحداً من أغرب أحداث سباق الخيل في ميدان بيروت. فعبّاس القادم من أزقّة «الشيّاح» الفقيرة كان فتى السباق الأوّل. لا يركب حصاناً إلاّ ويفوز. لم يعد المراهنون يبحثون عن أسماء الخيول ومواصفاتها، صاروا يبحثون عن عبّاس. فعبّاس يفوز إذا ركب، ويرفض الرّشاوي. يركب لأنّه يحبّ الأحصنة، ويحبّ الطيران فوقها. وإبراهيم نصّار كان مكتشفه. أحبّه منذ لقائهما الأوّل، عندما كان عبّاس في الحادية عشرة، ويتمرّن على الركوب. حنّا السلمان المالح يقول إنّ علاقة غامضة كانت تربط إبراهيم بعبّاس. وهذا ليس صحيحاً. فعبّاس لم يكن مهووساً إلاّ بشيء واحد اسمه الأحصنة. كان الابن البكر للسائس عفيف صبيح الذي أمضى حياته في تنظيف الخيول وإطعامها. وُلِد بين أقدام الأحصنة، وعاش طفولته يحلم بأن يصبح فارساً. لم يذهب إلى المدرسة بشكل منتظم، كان يهرب من الصّفوف ليأتي إلى ميدان السباق. بدأ يركب في العاشرة، وصار فارساً في الرابعة عشرة. إبراهيم نصّار شجّعه وأحبّه. كان إبراهيم يرى في الفتى صورته التي لم تتحقّق. صار عبّاس مرآة إبراهيم التي يشاهد فيها نفسه كما يتمنّى. نحيفاً، جميلاً، بحاجبين رفيعين معقوفين، فوق عينين واسعتين، وجبين عريض. وأحبّ نفسه من خلال هذا الجوكي. وعبّاس كان جوكيّاً من طينة خاصّة، لم يكن يركض في السباق من أجل أن يربح، كان يركض كي يركض، وتطير به الفرس إلى أبعد نقطة في العالم. «الحصان حين يركض لا يركض، بل يطير، يحملك إلى حيث يريد، وأنت عليك أن تتركه كي يصل إلى ركضه هو». هذه هي فلسفة عبّاس، كما صاغها إبراهيم في

خياله. صحيح أنَّه لم يكن يربح في البداية، لأنَّه كان يركب أحصنة من الدرجة الثانية، أو لأنَّ السّائس كان يبلّع الحصان أدوية تجعل سرعته تخفّ وسط السّباق. لكن عندما صار فارساً حقيقيّاً لم يعد يقبل. يراقب الحصان منذ ساعات الفجر الأولى، ويركض به في الميدان، ويطير ويربح. في تلك الفترة كانت همّة إبراهيم لشراء اسطبل واقتناء أحصنة قد فترت. ولكن مع عبّاس استعاد ثقته بالحياة. استعاد معنى الحياة التي كانت تمضي، وأرادها أن لا تمضي.

ورأى كيف مات عبّاس.

كان عبّاس يركب «الزنكو». و«الزنكو»، حصان أبيض قصير الذّيل. عبّاس يطير و«الزنكو» يطير به، ثمَّ لا أحد يدري ماذا جرى. لم يره أحد يسقط، لكنّ عبّاس كان على الأرض، و«الزنكو» يدوسه ويركض فوقه.

«لا يمكن أن يدوس الحصان فارسه، هذه مؤامرة، هذه جريمة»، صرخ إبراهيم وركض نحو عبّاس الميت.

«الحصان هو أشرف حيوان»، قال إبراهيم معزّياً بعبّاس، «بلّعوه، لازم يكونوا بلّعوه، لأنَّه مش ممكن، الزنكو حصان أصيل، وعبّاس فارس. مش ممكن، الحصان ما بيدعس على الفارس إلاَّ إذا كان مش طبيعي».

همهم النّاس المتحلّقون حول الأب بالموافقة.

«وين الزّلم»، صرخ إبراهيم. «لازم نعمل شي، هيدا ما بصير».

لم يجاوبه أحد. كان والد عبّاس يجلس في صدر الغرفة، يستقبل المعزّين ويتأنّى بالبكاء، والزلم كأنَّهم لم يكونوا.

كفر إبراهيم بسباق الخيل.

كان يعرف أنَّ السباق لعبة، وهو لا ينسى كيف هجم إميل صاحب دكّان «الباروليي» على شارل بيك، وشدّه من خصيتيه عندما انكشفت حقيقة فرنسوا الكردي. ثمَّ مات إميل بالسكتة القلبيّة.

«بس هيدا موت يا الله. كيف بيتركوا الولد يموت. بدهم يزعبروا، يزعبروا، بس حداً بزعبر بالموت. بلد بزعبروا فيه بموت الشباب، كيف بكون بلد».

تاب إبراهيم عن السباق، وقرّر أن يهاجر.

خلال علاقته بالسباق في مرحلة عبّاس، كان إبراهيم رجلاً مختلفاً. في عبّاس شيء كالسّحر. لم يكن سحر الفتوّة والشّباب فقط، بل كان سحر الطيران. عصفور يطير فوق حصان. هكذا كان يراه.

في المرّة الأولى لم يفز عبّاس. لكن إبراهيم لمحه، فانتظر نهاية الشّوط، وذهب وسأل عنه. كان عبّاس داخل الاسطبل، يساعد السّائس في تنظيف الحصان، حين اقترب منه إبراهيم وقبّله، ودعاه إلى معطم «أبو عفيف».

«أهلاً يا خواجة»، قال عبّاس.

«أنا جايي هنّيك»، قال إبراهيم.

«شكراً، بس يمكن شفت، فرقت معي على منخارين».

«بسيطة، المرّة الجاية بتربح، امشي ناكل».

«شكراً يا خواجة، شكراً».

«بلا شكراً، بلا بطّيخ، امشِ».

مشى الفتى، وفي المطعم تحدّث إبراهيم عن جمال الأحصنة، ورأى عبّاس نفسه في كلمات الرّجل. ومن يومها ربطت الصداقة بينهما، كانا يذهبان بعد السّباق إلى المطعم، وإبراهيم يستمع إلى أدقّ التفاصيل عن حياة الأحصنة والتدريبات، ويرى نفسه في الفتى. كانت نظراته تتركّز على فكّ عبّاس الدقيق، وهو يحرّكه بشكل منتظم ويروي. ولاحظ إبراهيم أنَّ عبّاس يحرِّك فكَّه عندما يكون راكباً. فصار يحرِّك فكَّه ويتخيّل نفسه راكباً. مرّة واحدة دعا عبّاس إلى بيته وسقاه كأس عرق. وكان عبّاس كثير التردّد في الشّرب. إصرار إبراهيم جعله يشرب، فشرب وسكر وأغرب في الضّحك. والعمّة سارة تراقبهما وتتعجَّب من صغر عقل الرّجال.

هذا كلّ شيء.

نورما تخترع القصص مثل كلّ العاشقات المحبطات. فإبراهيم نصّار لم يقم علاقة جنسيّة مع الفتى. أحبّه وسحرته عيناه الكبيرتان وحركة فكِّه الأسفل والأصابع الطويلة في يديه.

وإبراهيم لم يرو لأحد.

لم يروِ إبراهيم ذلك المنام. هل يستطيع أحد أن يتحكّم بالمنامات. المنام رؤيا كما قال حنّا، عندما أخبره عن مناماته في الحبس ورؤيته لمار الياس الحيّ.

إبراهيم رأى تلك الرؤيا التي أذاقته لذّة لم يعرف طعمها في حياته كلّها. رأى نفسه وعبّاس في سرير واحد. لم يكن عبّاس عارياً، كان بلباس الجوكي، والجزمة في قدميه، لا يعلم إبراهيم كيف دخلا السّرير، رأى نفسه بالبيجاما وعبّاس إلى جانبه. إبراهيم ضمّ الفتى إليه، ضمّه فقط، وضع فمه على عنقه وقبّله، وعصفت به تلك اللّذة

الحمقاء التي جعلته ينهض من فراشه كالمجنون ويهرول إلى الحمّام. في ذلك المنام جاءت لذّة إبراهيم كما لم تأتِ في حياته، لا مع نورما ولا مع الحلبيّة ولا مع أحد. كان جسده يمتدّ في الجسد الآخر، ورأى عيني الفتى، مفتوحتين ومشتعلتين، وامتدّ كما لم يمتدّ. ليلتها فهم أنَّ اللّذّة في الجسد كلّه، وليست في عضو واحد.

لم يخبر إبراهيم سرّ منامه لأحد.

صار يشعر خلال لقاءاته بالفتى الجميل بشيء من الخجل. صار يرى في عيني الفتى عتاباً وضعفاً، كأنَّ عبّاس عرف بالمنام أو أحسّ به.

الوقت لم يمهل إبراهيم كي يطوّر علاقته بعبّاس. جاء الموت، ومعه ارتسمت التعاسة على وجه الرّجل الأخير من عائلة عبد الجليل. جميع رجال العائلة رحلوا في موجات متلاحقة إلى أميركا الجنوبيّة. أمّا عبد الجليل فلا أحد يعرف عنه شيئاً. هل هو الرّجل الذي أُعدم في ساحة البرج يوم ٣ حزيران ١٨٦٠، أم هو الرّجل الذي ذُبح في «عين كسرين» في ١٢ شباط ١٨٦٠، بتلك الطريقة الوحشيّة، إذ قيل إنَّ عشرين سكّيناً غُرست في ظهره، وظلّ يمشي مترنّحاً ثلاث ساعات، رافضاً أن يموت، ثمّ سقط في محلّة «الأوزاعي»، وهو يعوي.

لا أحد يدري.

إبراهيم لم يعثر على ذكر لعبد الجليل في الصندوق الذي بحث في داخله عن مكان الذهب، حين قرَّر أن يهاجر.

لماذا لم يهاجر إبراهيم؟

هناك سببان محتملان لعدوله عن تنفيذ قراره.

السبب الأوّل هو التردّد المزمن الذي كان يعانيه إبراهيم في اتّخاذ قراراته. والسبب الثاني يكمن في خلفيّة القرار. فلقد قرّر أن يعثر على الذهب الذي دفن مع النّساء قبل أن يهاجر، ووضع الخطط للذهاب إلى «عين كسرين»، والبحث عن قبر جرمانوس. لكنَّ الحرب الأهليّة بدأت عام ١٩٧٥، وحوّلت جميع الخطط إلى أوهام. وإبراهيم سوف يموت عام ١٩٧٦، ولن يشاهد المذبحة الجديدة التي ستحدث عام ١٩٨٣ في «عين كسرين» والقرى المجاورة حيث قيل، والله أعلم، إنَّ المذابح التي ستجري ستكون أكثر هولاً من مذابح ١٨٦٠، وأنَّ الجيش الفرنساوي لن يأتي ليعيد من تبقّى من آل نصّار حيّاً إلى قريتهم، كما حصل عام ١٨٦٠، وأنَّ جميع المقابر سوف تنبش، ولن يعثر أحد على قبر جرمانوس.

بدأت الحكاية هكذا.

في تلك الأيام كانت بيروت تعيش تحت سطوة رجل اسمه فكتور عوّاد. الاسم الكامل فكتور حنّا عوّاد، من قرية «فتري» في «بلاد جبيل». كان فكتور عوّاد في الخامسة والثلاثين من عمره، معتدل القامة، نحيف الجسم، أسمر اللّون، مجعّد الخدّين، مستطيل الوجه، واسع الفم، دقيق الأنف، عيناه سوداوان فوقهما حاجبان مقفلان وجبهة عاديّة، كثيف شعر الرأس أسوده، عصبيّ المزاج، تدلّ ملابسه على الفقر وسوء الحال.

هذا الرّجل لم يهيمن فقط على خيال النّاس في بيروت عام ١٩٤٨، بل دخل حياة حنّا السّلمان ولم يخرج منها. بقيت صورته وهو يقتل أنطوانيت نجّار أو يدفن إميلي عينبتوري، أو يملأ أكياس الفحم بالجثث، ويمضي بها إلى «الكرنتينا» قرب جسر نهر بيروت، ويغطّيها بالرّماد ويطمرها، وكأنّها جزء من حياة غامضة عاشها حنّا السّلمان قبل حياته بأعوام طويلة.

كان حنّا يستعدّ للموت.

جاء الخوري جراسيموس إلى السّجن، واعترف حنّا أمامه. وفي الاعتراف حدثت تلك المشكلة. فحنّا، حين رأى أمامه شبح الموت، قرّر لمرّة واحدة في حياته أن يقول الحقيقة. جاء الكاهن واختلى بحنّا في الغرفة التي كان يقابل فيها نورما قبل مقتل أحمد العتر. جثا حنّا وبدأ يعترف، والكاهن لا يصدّق أذنيه. لم يتكلّم حنّا إلاّ عن الفتاة. روى

أنّه يعتقد، لكنّه ليس متأكداً، أنّه فضّ بكارتها، وقال إنّه لم يندم.

«معها يا أبونا كنت حسّ أنّه الجنس جنس، ما في شي تاني. شي واحد بشوفو قدّامي، بشوف حالي. بتكون واقفة حلوة وصغيرة وعمرها ٢٠ سنة، وعم تشلح، ما بخلّليها تكفّي، بهجم وبنام معها، وبصير شوف حالي كيف عم نام، ولمن بتبلّش تبكي، بحسّ أنّي ملك العالم».

ودخل حنّا في التّفاصيل، والكاهن جالس على الكرسي، واضعاً بطرشيله فوق رأس المجرم، يفتح عينيه على مداهما كي يتأكّد من أنّه داخل السّجن، وأنّه يستمع إلى اعترافات حنّا السّلمان، وليس في منام.

الكاهن قاطع حنّا، «طيّب طيّب يا ابني، هيدا الموضوع فهمناه، وبعدين».

«بعدين خلص يا محترم».

«يا ابني إذا بدّك حلّك من خطاياك اعترف، أنت هلق قدّام الله».

«هيدي هي اعترافاتي»، جاوب حنّا.

«شو هالحكي يا ابني، بالمحكمة اعترفت وهون بتسكت».

«بسّ يا أبونا أنا ما قتلت».

«لكن شو عملت؟»

«أنا ما خصّني يا أبونا، اعترفت تحت الخبيط والملح، طعموني كيلو ملح».

«يا حنّا أنا مش قاضي، وهيدا الكلام ما بفيدك، الله شاف كلّ شي

وبيعرف كلّ شي، بسّ قول إنّك ندمان لحلّك من خطاياك وقوم اتسهّل».

«أنا عم قول الحقيقة يا أبونا، والله أنا بريء».

هنا فقد الكاهن أعصابه، سحب البطرشيل عن رأس حنّا، رفع إصبعه وبدأ يتكلّم مهدِّداً.

«أيّ حقيقة، أنت مفكّر أنّه الزّنا أخفّ من القتل، عند ربّنا كلّ الخطايا متل بعضها، خلّصني اعترف، بكرا رح تواجه الديّان العادل يلّلي ما بتسقط شعرة من رؤوسكم إلاّ بإذنه، هونيك ما فيك تكذب، خلّصني بدي روح شوف شغلي، شو أنا ما عندي شغلة غيرك».

«والله يا أبونا، عم بقول الحقيقة».

«لا أنت كذّاب».

وقف حنّا «أنا مش كذّاب، أنت كذّاب، شو بخصّك فيّي، بدّي أعترف متل ما بدّي، شو أنت الله».

وعلا الصّياح. وقيل إنّ حنّا ضرب الكاهن وشتمه، فهجم حرس السّجن عليه وأوسعوه ضرباً ولكماً وركلاً وأعادوه إلى الزّنزانة عاجزاً عن التّنفس.

سوف يذهب حنّا بعد هذه الحادثة بأسبوعين إلى كنيسة القدّيس نيقولاوس، خلال القدّاس الإلّهي، وسوف يدخل الهيكل حاملاً سكّيناً. الكاهن سوف يحاول الهرب، ثمّ سيركع ويقبّل يد حنّا معتذراً، وسوف تكون عظة ذلك الأحد عن المجرم فكتور عوّاد، وبراءة حنّا السّلمان، والظّلم الذي حلّ به، والتجربة التي مرّ بها، لأنّ الربّ يجرّب أحبّاءه، وسوف يشبّهه الخوري بالرّسل الأطهار الّذين عاشوا الاضطهادات وتعذّبوا من أجل المسيح المخلّص.

بعد مقتل أحمد العتر وُضع حنّا السّلمان المالح في زنزانة انفراديّة. عاش وحده، ولم يعد ينتظر زيارات نورما، وكان يعلم أنّ السّاعة قد اقتربت. وبعد عراكه مع الأب جراسيموس توقّف عن قراءة الكتاب المقدَّس والتأمّل في قصّة مار الياس. دخل حنّا في السّكون الرّوحي الّذي يشبه حجراً ثقيلاً جاثماً على الصّدر.

وفي أحد الصّباحات جاءه محاميه الأستاذ أحمد يونس. كان حنّا يحبّ أحمد يونس، فهو الإنسان الوحيد الّذي اقتنع ببراءته، حتّى بعد اعترافاته أمام هيئة المحكمة.

عمل أحمد يونس المستحيل من أجل تخفيض الحكم من الإعدام إلى المؤبّد. كتب مقالات في الصحف ورسائل إلى رئيس الجمهوريّة ورئيس الحكومة، ولكن دون جدوى.

جاء المحامي ذلك الصّباح، وكان متجهِّماً، وقال لحنّا إنّ القضية صعبة.

«أنا عارف، قلبي حاسسني»، أجاب حنّا بصوت مكسور.

«المسألة تطوّرت كتير بعد جريمة الحبس، لازم نعمل شي»، قال المحامي واقترح على حنّا أن يكتب رسالة طويلة إلى رئيس الجمهوريّة يشرح له فيها التّعذيب الوحشي الّذي تعرّض له.

«ما بدّي أكتب شي»، جاوب حنّا، «بدّي اخلص، وما فرقاني معي. بالأوّل كنّا نقول شو الموت نعس، ونفكّرها تفنيص ونضحك، هلّق أنا بعرف، الموت نعس، فليش بدّي خاف. بسّ يلّلي مضايقني هو الحبلة. على علمك الواحد بينوجع كتير وقت يشنقوه؟»

شرح له المحامي أنّ آلام المشنقة خفيفة جدّاً، لأنّه ما إن يشدّ

الحبل حتّى تطقّ الرّقبة ويغمى على الإنسان، وفي الإغماء يفقد كلّ شعور. «يعني تكتين تلاتة، وبكون كلّ شيء اتسهّل»

«الله يسهِّل»، قال حنّا، وودّع المحامي بقبلتين على وجنتيه، وأوصاه أن ينقل تحيّاته إلى أولاده وزوجته، ويخبرهم أنّ والدهم كان بريئاً وقضى مظلوماً. دمعت عينا حنّا، ودمعت عينا المحامي وافترقا.

صباح الثّالث من تشرين الأول ١٩٤٨ نشرت الصّحف اللّبنانيّة المرسوم التّالي الصّادر عن رئيس الجمهوريّة اللّبنانيّة الشّيخ بشارة الخوري.

«إنّ رئيس الجمهورية،

بناء على الدّستور اللّبناني،

بناء على قرار رئيس لجنة العفو المؤرّخ في ٢٨ أيلول ١٩٤٨،

بناء على اقتراح رئيس مجلس الوزراء، وزير العدليّة،

يرسم ما يلي:

١ ـ ينفّذ حكم الإعدام الصّادر عن محكمة الجنايات بتاريخ ٢٤ حزيران ١٩٤٨. بحقّ المدعو حنّا السّلمان.

٢ ـ يجري التّنفيذ في السّاحة الكائنة قرب قصر العدل.

ينشر هذا المرسوم ويبلّغ حيث تدعو الحاجة».

ليلة الرّابع من تشرين الأوّل ١٩٤٨ كان عمّال بلديّة بيروت يفرشون أرض ساحة قصر العدل بالرّمل الأحمر، وينصبون المشنقة، وكان شارع المتنبّي سهران يستعدّ للذهاب إلى السّاحة والتفرّج على المجرم، وكانت بيروت بأسرها تستعدّ للاحتفال بإعدام حنّا

السّلمان. كان إبراهيم نصّار في بيته يشرب كاس عرق ويقول إنّه لن يستطيع النّوم لأنّ عليه أن يذهب فجراً للتفرّج على الإعدام، وكانت نورما تبكي. زوجة حنّا السّلمان أقفلت الشّبابيك والأبواب ورفضت أن تفتح باب بيتها لأحد.

كلّ النّاس كانوا يعلمون أنَّ صبيحة الاثنين الواقع في ٤ تشرين الأوَّل ١٩٤٨ سوف تكون مكرّسة للإعدام، ما عدا حنّا. نام حنّا ليلته دون أن يعرف شيئاً، ولم يشعر بأيّ خوف أو قلق.

في الواحدة فجراً سمعت جلبة في باحة سجن الرّمل. اعتقد الحرّاس أنَّ ساعة الإعدام جاءت فاستعدّوا للتفرّج على الرّجل وهو يرتجف وتصطكّ أسنانه خوفاً من الموت. مسحوا التثاؤب عن أفواههم، وشمّروا عن زنودهم استعداداً لحمله حملاً إذا عجزت قدماه عن المسير.

وصلت ثلاث سيّارات قفز منها القاضي جميل سلامة، والمحامي أحمد يونس، ومعهما ثلاثة موظّفين، وهرولوا إلى زنزانة حنّا. أوّل الدّاخلين كان المحامي الذي صرخ بحنّا. كان صوت المحامي ملتوياً كأنَّه يكتم انفعالات متدافعة. فتح حنّا عينيه فبهره ضوء الغرفة، وفهم.

«ماشي الحال»، قال حنّا بصوت مرتجف.

«قوم قوم على البيت»، قال المحامي.

اعتقد حنّا أنَّ طقوس الإعدام بدأت، وأنَّهم جلبوا أهل بيته كي يلقي عليهم النّظرة الأخيرة.

«ما بدّي شوف حداً»، قال حنّا. وبدأت أسنانه تطقطق في فمه.

«ولك، قوم، سبحان الله».

أمسكه المحامي من يده وحاول إيقافه. وقف حنّا وسقط على الأرض وكأنّه أغمي عليه.

«سبحان الله، ظهرت الحقيقة، كمشوا المجرم، وأنت بريء، صدر العفو، قوم روح على البيت».

كان مدير السّجن الجديد، السيِّد كريم معلوف، وإلى جانبه القاضي والمحامي، يقفون أمام حنّا الجاثم على الأرض، والنّوم لم يغادر وجهه، يستمع إلى ما يُقال ولا يفهم. حكّ وجهه وظهره فتساقطت القشور البيضاء. وقف. لم تحمله قدماه فكاد يسقط. حمله رجال الشّرطة إلى سيّارة المحامي، ومضى إلى بيته.

في تلك الأيّام اكتشف البوليس اللّبناني، بطريق الصّدفة، جرائم فكتور عوّاد. ولحظة اعتقاله اعترف بكلّ شيء.

كان فكتور عوّاد يعيش مع زوجته نهاد في منطقة «الجمّيزة»، في بيروت، حيث كان يعمل في حانوت لبيع الفحم يملكه عمّه مارون عوّاد. ومارون عوّاد هذا أُصيب بالغرغرينا، الأمر الذي حمل الأطبّاء على قطع رجليه. وكان فكتور يقوم على إدارة المحل، وينقل عمّه مارون في عربة يجرّها بنفسه من عمله إلى بيته وبالعكس. وحكاية فكتور عوّاد غريبة، فقد عرف بتقواه وتعبّده للسيِّدة العذراء. وكان عمّه الثاني الكاهن سمعان مرشده الرّوحي. لكنّه بدل أن يدخل سلك الكهنوت دخل سلك الجنديّة، وهناك بدأت مشاكله. اتّهم بالاحتيال والنصب وسُجِن أحد عشر عاماً. وبعد خروجه من السجن لم يجد عملاً. فهو جنديّ مطرود، وسجلّه العدلي غير نظيف، بعد أن قام بسرقة مستودعات الأحذية في ثكنة «فخر الدّين»، وبيعها في السّوق. وهو لا يحمل أيّة مؤهّلات علميّة. فلقد ترك المدرسة قبل

نيله شهادة البكالوريا من أجل الالتحاق بالجيش. فلم يجد عملاً، وهذا هو ما اضطرّه للعمل في دكّان عمّه مارون الذي كان بائعاً للفحم. وبعد سنة على بدء العمل تزوّج نهاد عوّاد، وهي قريبة له من قرية «فتـري» كانت تعمل خادمة في منزل الخواجة أديب تابت، في حي «مار نقولا» في «الأشرفيّة». تزوّجا ولم ينجبا أولاداً، ثمَّ بدأ مسلسل الجرائم.

اعترف فكتور عوّاد بارتكاب ثلاث جرائم: ذبح المومس أنطوانيت نجّـار، قتـل إميلي عينطـوري، وقتـل ابـن عمّـه جـوزف عـوّاد. وفـي الحالات الثـلاث كان الدّافع الوحيد للجريمة هو سرقة الذّهب. وحين روى كيف قتل، روى أنَّ الذّهب في معصم أنطوانيت هو الذي دفعه إلى ارتكاب الجريمة. أمّا جريمة قتل ابن عمّه جوزف، التي كـانـت سبـب كشف جـرائمه الأخرى، فقـد حصلت بسبب الـذّهـب أيضـاً لأنَّ جوزف كان قد احتال على أحد الصّاغة، وأخذ كمّيّة من المجوهرات بحجّة أنّه سيبيعها، فاحتال عليه فكتور واستدرجه إلى دكّـان الفحـم حيـث قتلـه بـإطـلاق أربـع رصـاصـات علـى رأسـه، ووضعه في كيس فحم، ورماه في حفرة في «الكرنتينا»، حيث رمى جثّتي أنطوانيت وإميلي قبله، وغطّاه بتراب الفحم. وكان أن هطلت الأمطـار وجـرفـت الجثّـة إلـى البحـر، واكتشفـت بعـد أربعـة أيّـام علـى شواطئ مدينة «جونية».

واعتـرف فكتـور عـوّاد بسرعـة مـذهلـة. لـم يكـن هنـاك أيّـة حـاجـة للتعذيب. اعترف بقتل جوزف وإميلي وأنطوانيت. واكتشف المحقّق أنَّ حنّا السّلمان ليس مرتكب الجرائم.

كانت السّاعة العاشرة من ليل الثالث من تشرين الأوّل ١٩٤٨،

فتمّ الاتّصال بالقصر الجمهوري وصدر العفو عن حنّا وأنقذت الرّقبة المليئة بالقشور البيضاء من حبل المشنقة.

حنّا لم ينسَ المشنقة.

حين ذهب لحضور إعدام فكتور عوّاد شعر وكأنّه هو من سيُعدَم. حضر المحاكمة وذهب إلى حيث مثّل عوّاد جرائمه. وكان يشعر أنّه من الممكن أن يكون هو. رأى المجرم الحقيقي يمثّل الجرائم التي سبق له هو أن مثّلها، وخاف من الحقيقة، واقتنع أنّ الإنسان يمكن أن يكون أيّ شيء، وأنّ القضيّة برمّتها مجرّد مصادفة.

روى فكتور عوّاد بصوت بارد كأنّه لا يخرج من فم إنسان. روى وكأنّه آلة تسجيل، وكأنّ الجريمة لم تكن هوساً. حنّا كان يعلم، بعد أن بدأ تدرّجه داخل العالم السّحري الذي فتحه له سامي الخوري عبر سرّ الملفوف، أنّ الجريمة أو التهريب هوس. يأخذك الهوس إلى حيث لا تدري، يسيطر على الكتفين ويجعلهما متوتّرين كأنّهما ينتميان إلى جسم رجل آخر.

لماذا فعل فكتور عوّاد هذا؟

كان حنّا ينظر إلى الرّجل النّحيف الذي يصعد منصّة الإعدام، ويتلفّت يميناً وشمالاً وكأنّه ينتظر شيئاً ما. «السّترة يا ربّ»، قال حنّا، حين بدأ جسد فكتور عوّاد يبلعط في الهواء، وروحه تخرج وكأنّها سحابة من الدخان الأسود.

في ذلك اليوم، وكان الاثنين الحادي والثلاثين من كانون الثاني ١٩٤٩، بدأ النّاس يتوافدون إلى ساحة قصر العدل، منذ الثانية فجراً. كان البرد شديداً، والجموع تتدافع كي تصل إلى أقرب موقع

من أعواد المشنقة، حتّى كادت تهدّد بإسقاط المنصّة، فتحلّق رجال الشّرطة حولها وأبعدوا النّاس. قُدِّر العدد بخمسة آلاف ضاق بهم المكان، وانتشروا على ساحة تمتدّ من قصر العدل حتّى سينما «الكابيتول» و«باب ادريس». وكان الجمع يموج.

في السّادسة والنّصف صباحاً وصلت سيّارة السجن السّوداء، فاستقبلتها الجماهير بضجيج هائل، وارتفعت زغاريد عشرات القادمات من السّوق العمومي. وقفت امرأة في الخمسين من العمر، بفخذيها السمينتين على حافة التصوينة قرب المشنقة، وبدأت تقول شعراً مغنّى، والنّساء يزغردن من ورائها وكأنهنّ في عرس. واختلط الحابل بالنّابل. وعبثاً حاول رجال الشّرطة منع النّاس من الاقتراب من فكتور عوّاد الذي بدا عليه الذهول والخوف.

أوقفوا فكتور عوّاد تحت المشنقة وألبسوه البرنس الأبيض. لاحظ الجلّاد ارتجافة خفيفة في قدميه، ورآه يبلع ريقه بشكل متواصل. المشهد عن بعد كان مختلفاً. بدا فكتور عوّاد شجاعاً ومتماسكاً. فهو لم يَنْهَرْ، كما يحصل غالباً مع المحكوم عليهم، ولم يتردّد في لبس البرنس الأبيض. كلّ ما هنالك أنّه كان شارداً.

بعد أن شاهد النّاس فكتور عوّاد باللّباس الأبيض يستعدّ للموت، رأوا امرأة تحمل كيساً. تقدّمت والدة جوزف عوّاد حاملة الكيس الذي وضع فيه المجرم جثّة ابنها، وأمسكت بثياب رئيس قلم النيابة العامّة ترجوه شفاء غليلها، وهو أن يرى المجرم كيسه. اقتربت المرأة من فكتور ووضعت رأسها داخل الكيس وصارت تمشي وكأنّها عمياء. المرأة تترنّح والزغاريد صارت موقّعة على حركة قدميها، والجلّاد يتقدّم منها ويمسك بها من يدها وكأنّه يخاف أن

تصطدم بقاعدة المشنقة. وفكتور يقف كالمذهول. يمسك عمود المشنقة ويصرخ «بكفّي، هيدا إعدام مش مسخرة، أنا بدّي إحكي». سحب الجلّاد المرأة بالكيس إلى الوراء. نزعت المرأة الكيس عن رأسها وجفّفت به دموعها وضاعت بين الواقفين.

قال فكتور عوّاد بصوت مرتفع:

«قبل ما اطلع بدّي بوس الأستاذ موسى برنس».

وتعانق عوّاد مع المحامي الذي دافع عنه عناق الوادع. تقدّم من السّلم وصعد إلى المنصّة، والجلّاد بانتظاره يريد إدخال عنقه في الحبل.

«انطر تكّة».

قال فكتور للجلّاد، «أنا بدّي إحكي، إلي حقّ إحكي، وأنتو هونيك وقّفوا الزلاغيط والغناني، لاحقين، بعد شويّ عملوا يلّلي بدكم ياه، وأنا ما رح عود إسمع. بدّي قول إنّي بريء، أنا بريء، مزبوط قتلتهم، بس ما بعرف ليش، وما يعرف كيف. أنا بريء، الحقّ مش عليّي، الحقّ على الدولة. أنا سرقت والوزرا بيسرقوا كلّ يوم، دكّوني بالحبس ١١ سنة منشان ٣ آلاف ليرة، وبعدين شو بدكم ياني أعمل، الحقّ مش عليّي، الحقّ على الدّولة، الحقّ عليكم كلّكم، كلّكم تركتوني اتبهدل، بلاد مبهدلة، أنا ما كان بدّي اقتل، وصارت. معليش. أنا ما بطلب الغفران من حداً، أنا ما بدّي شي من هالدنيا، تفو على الدّنيا»، وبصق، «تفو على الدّنيا»، وبصق. وهنا بدأ يكيل الشّتائم وفقد توازنه، وكاد يسقط عن المنصّة. حاول الجلّاد دفعه نحو بكرة المشنقة فانتفض عوّاد وتراجع إلى الوراء وسقط أرضاً. اقترب المحامي وساعده على الوقوف. همس عوّاد

شيئاً في أذن المحامي، ركض المحامي باتّجاه رئيس قلم النيابة، ثمَّ عاد وساعد عوّاد على الصّعود إلى المنصّة، بينما كان الجلّاد ينظر إليهما بعينين حاقدتين وكأنَّه يستعدّ لارتكاب جريمة.

«أنا عندي طلب أخير»، قال فكتور عوّاد، «بدّي سيكارة».

أعطاه رئيس قلم النيابة العامّة سيكارة «جيتان» فرنسيّة.

«لا، بدّي سيكارة وطنيّة، نمرة أوّل رفيع».

أعطاه أحد رجال الشّرطة سيكارة «نمرة أوّل رفيع» وهمّ بإشعالها له. تراجع رأس فكتور عوّاد إلى الوراء.

«لا مش أنت، بدّي فخامة رئيس الجمهوريّة اللّبنانيّة الشّيخ بشارة الخوري يولّعلي السّيكارة، هيدا طلبي الأخير، وبعدين عملوا فيّي يلّلي بدكم».

وحصل هرج ومرج. مدّ فكتور عنقه والسّيكارة في فمه، منتظراً قدوم رئيس الجمهوريّة. دفع الجلّاد فكتور نحو بكرة المشنقة. سقطت السّيكارة من فمه ودخل رأسه في الحبل. عوّاد استقبل البكرة بعينين جاحظتين. وبذل الجلّاد جهداً في تثبيتها على رقبته. وما كاد الجلّاد يفعل حتّى أشار بمنديل أبيض إلى زميله، فتأرجح جسم فكتور وأخذ يرتعش رعشات شديدة تنذر بنزعه الطويل، وظلّ ينتفض زهاء خمس دقائق.

خيّم الصّمت على الجميع. توقّفت الزّغاريد وتوقّف الصياح. جاء الصّمت ليلفّ جسد الرّجل المعلّق في الهواء، وبدأت الجماهير تتفرّق. بقيت الجثّة معلّقة حتّى الثامنة صباحاً حين أتى الطبيب الشرعي وفحصها، وجاء الكاهن ومعه التابوت وخمسة رجال وأخذوها وذهبوا.

سميرة التي مثّلت الجريمة مع فكتور عوّاد رأت رئيس الجمهوريّة. قالت إنَّ رئيس الجمهوريّة ظهر فجأة بعد أن طلبه عوّاد من أجل إشعال سيكارته. تقدّم الرّئيس بقامته القصيرة وجسمه العريض وقبّعته الإفرنجيّة وخطواته المتعثّرة. سحب ولاّعة ذهبيّة من جيب سترته وولّع سيكارة عوّاد وتراجع إلى الوراء. سحب فكتور نفسين من سيكارته وأبقاها بين شفتيه المرتعشتين، لأنَّ يديه كانتا عاجزتين عن الحركة داخل برنس الإعدام الأبيض. سقطت السّيكارة المرتعشة من شفتي فكتور فدفعه الجلاّد وأدخل عنقه في الحبل.

حنّا لم يرَ رئيس الجمهوريّة، لكنّه لم يعد يذكر إذا أشعلوا السّيكارة لفكتور أم لا. قال لإبراهيم إنَّهم ربّما وجدوا بين جمهور المتفرّجين شخصاً يشبه رئيس الجمهوريّة، لأنَّه لا يمكن رفض طلب المحكوم عليه بالإعدام. جلبوا شخصاً قصيراً سميناً وألبسوه قبّعة إفرنجيّة وطلبوا منه أن يشعل سيكارة فكتور عوّاد. ذهول عوّاد جاء بسبب مفاجأته بالحضور السّريع لرئيس الجمهوريّة. هكذا قالت سميرة «كان مفكّر رح ينطرنا شي تلات ساعات. العمى بقلبه، تكسّروا إجرينا وأصواتنا انبحّت، وما بقى فينا ننطر. وبعدين دفشو الجلاّد ومات».

سميرة روت ذلك لحنّا المالح، وكان حنّا قد بدأ عمله مع شبكة سامي الخوري، كمراقب وموزّع في السّوق العمومي، وهناك صار صديقاً لها. وجعل مقرّه في المقهى الكائن في اسطبل البناية الحمراء التي كانت مقرّ ماريكا اسبريدون، ملكة شارع البغاء. إلى جانب المقهى، هناك غرفة صغيرة استأجرها الأخ عطية. والأخ عطية كان من المتجدّدين البروتستانت الذين قرّروا التّبشير وسط «المجدليّات»

اللّواتي رماهنّ المجتمع بحجر. كان الأخ عطية يقف أمام دكّانه الصّغير حاملاً الإنجيل داعياً النّاس إلى الدّخول في التوبة. «اقترب ملكوت السموات»، يصرخ عطية، ويتلو مقاطع من الإنجيل يحفظها غيباً. ولم يكن أحد يدخل إلاّ بعض التلاميذ الشبّان القادمين من مدرسة «الفرير» في «الجميّزة»، يدخلون ويسخرون من الأخ عطية، ومن إيمانه. وعُرف الأخ عطية بجملته الشهيرة «الرّاحة فوق». «هنا»، ويشير إلى الأرض «العذاب والمشقّة والخطيئة، الإنسان ولد خاطئاً ولا خلاص له إلاّ بالمسيح أمّا فوق» ويشير برأسه ويده اليمنى إلى الأعلى، حيث منزل ماريكا «الرّاحة فوق، هناك الرّاحة الأبديّة». يضحك التلاميذ وهم يصعدون الدّرج الحجري إلى فوق حيث الرّاحة الأبديّة بين النّساء، تاركين الأخ عطية لسذاجته.

حنّا كان جار الأخ عطية، وكان يحبّ أن يجادله كثيراً في الأناجيل والعقائد، وخاصّة في عقيدة عذريّة السيّدة مريم التي كان الأخ عطية يرفضها بشدّة.

انطلاقاً من ذلك المقهى أدار حنّا عمليّة توزيع الحشيشة في السّوق العمومي، وأقام شبكته الخاصّة التي صار المعلّم سامي يحسب لها حساباً، لأنّ حنّا كان يصطاد المهرِّبين الجدد من عائلات بيروت المحترمة.

سميرة روت لحنّا كيف أغمي عليها عندما مثّل فكتور عوّاد جريمة ذبحه لأنطوانيت نجّار.

«جابوه، وكانت السّاعة ١١ قبل الضهر، وقعدنا مع المدّعي العام الأستاذ أسعد بدوي، وسمعناه عم بخبّر. خبّر كيف شاف المباريم

الذّهب بإيد أنطوانيت وقرّر يقتلها. عطاها موعد السّاعة ١٢ باللّيل. إجا وشرب عرق، وهي دخّنت سيكارة حشيشة، وكان صاحبه الأرمني ناطر تحت بالسيّارة، وبعدين نام معها، وبعدين دبحها بالسكّين».

سأله القاضي إذا كان سكران وقت ذبحها.

«ولو يا سيدنا»، جاوبه فكتور، «بدّك ياني أسكر من كاس عرق واحد. طلّيت عالبلكون وأشّرت لصاحبي حتّى يستعدّ، وبعدين رجعت نمت حدّها، وعبطتها عبطتين، وحطّيت موس الحلاقة على رقبتها وحزّيته مرّتين. لمّن فات الموس برقبتها بلّشت تعنّ. سدّيت تمّها بإيدي، حتّى تأكّدت أنّها ماتت، وبعدين غسلت إيديّ من دمها، وشلّحتها الأساور، وطلّيت عالشارع مطرح ما كان برسيخ ناطرني ومشينا. الحقّ على الأرمني، نزلت وكان قاعد بالسيّارة وعم يرجف، قلتلّه ينطرني، قال وين الدّهب، قلتلّه يروق، أخدت كيس الفحم من السيّارة وطلعت لعندها، تلبّكت، هو يلّلي لبّكني قد ما كان خايف. المهمّ حطّيتها بالكيس، حملتها على ضهري ورجعت بسرعة. ركبنا السيّارة وطيران على الكرنتينا. هيدي هي الغلطة. العجلة من الشيطان. العجلة خلّتني ما إنتبه على الدّم يلّلي نزف على المخدّة، وإلاّ كنت جبت المخدّة معي، وكنتو فكّرتوها اختفت».

طلب المدّعي العام من سميرة النّاشف أن تمثّل الدّور. نامت سميرة على السّرير، وحاول عوّاد تحت أنظار المدّعي العام والقضاة ورجال الشّرطة أن يقبّلها على فمها.

«شو عم تعمل»، صرخ المدّعي العام.

«عم بوسها».

«بلا بوس بلا أكل هوا، هلّق وقت الزعرنة، خلّصنا مثّل».

ضمّ فكتور سميرة إلى صدره، بعد أن استلقى إلى جانبها، وحزّ عنقها بمشط مرّتين. أنّت سميرة وأغمي عليها.

«شفت المشط عم يلمع كأنّه سكّينة، كان بدّي أهرب، بس يا لطيف كيف مسكني، شدّني بطريقة رهيبة، وما عاد فيّي اتحرّك، ولمّن حزّ المشط برقبتي حسّيت إنّي عم موت، بعدين الست بيانكا قالتلي إنّه غمي عليّي، وأنّه البنات صاروا يبكوا، وأنّه العسكريّة قرطوا قتلة لفكتور عوّاد».

حنّا لم يسأل سميرة لماذا جاءت الست بيانكا وشهدت ضدّه حين كانوا يحقّقون معه في قضيّة مقتل أنطوانيت. جاءت بيانكا وقالت إنّه القاتل.

«هيدا هو، مبلى، أنا شفته نازل»، قالت بيانكا.

«أنا! أنتِ شفتيني؟»

«مبلى أنت، وسمعت صوته كمان، هيدا صوته».

«صوتي»!، قال حنّا.

«صوتك ونصف، هيدا هو يا سيدنا بشحمه وعضمه».

الغريب أنّه لا يوجد أيّ شبه بين الرّجلين، كي تبرّر بيانكا خطأها الرّهيب هذا. فحنّا قصير أبيض البشرة ممتلئ الجسم، يتدلّى كرشه الصّغير أمامه، ولا يمكن لأحد أن يخطئ.

«اللّيل بغطّي»، قالت سميرة.

«كيف بغطّي، العمى، كنتو روّحتوني».

«نحن ولاد اللّيل، وباللّيل ما منشوف إلاّ العتمة. بخبّرونا قصص

وخبريات كلّها كذب. يلّلي بقلّك أنّه عنده شركات وبكون بنطلونه مبخوش، ويلّلي بصير صوته يقطّش لأنّه بحبّ مرته، بس مضطرّ يخونها لأنّها بعذر، ويلّلي أبوه نايب، ويلّلي بدّو يتزوّجني لأنّي بذكّرو بالمرحومة أمّه، ويلّلي ما بعرف، كلّه كذب. قالولنا أنتِ، قلنا أنتِ، نحن شو خصّنا. ليش نحنا شفنا. فات واحد وقتل أنطوانيت، وضرب الخوف السّوق، وجابوك. قلنا الحمد لله، انكمش المجرم وهلّق صار فينا نشتغل على رواق. وبعدين حضرتك شرّفت ومثّلت الجريمة. جابوك على السّوق ونمت على بطنك وغميت. مبلى، مش أنت يلّلي قلت، وكانت بيانكا حاضرة أنَّك دبحت أنطوانيت بسكّين المطبخ، وألّفت قصّة طويلة عريضة عن حبّك إلها، وأنَّها كانت تخونك. طيِّب ليش عم تزعل، ما كلّه كذب بكذب. شو بعرّفني، يمكن فكتور عوّاد ما قتل، يمكن هو متلك ما خصّو وكان عم بمثّل، وانسجم بالدّور أكتر منّك».

«وبعدين»، سأل حنّا.

«وبعدين شو يا حنّونتي».

«بعد ما دبحك بالمشط، شو صار»؟

«متت».

«متّي»!

«لا غميت، وفكّروني متت. بتعرف الواحد بيغمى دغري، بلا ما يحسّ، مبلى لمّن عبطني وشدّ، صرت أرجف، حطّ إيدو على خوانيقي وأنا أرجف متل الورقة، وفاجأني بالمشط. وشي حسّيته على رقبتي رحت».

«وبعدين؟»

«بعدين وعيت، قالولي إنّه ضلّوا يضربوا فيه لكسّروه. والنّسوان صارت تسبّ، وشلحت الصّرامي وهجمت. العسكريّة ردّوهم وضربوه وأخدوه على الحبس».

«يا لطيف، الله يستر».

«ما كلّ شي مستور يا حنّونتي، بعدين رحنا تفرّجنا على حفلة الإعدام. بس شو بدّك، بدّك الحقيقة وإلاّ أختها».

«الحقيقة»، قال حنّا.

«الحقيقة أنا ضلّيت ٣ أشهر ما أقدر اشتغل. كلّ ما جرّب إرجع على الشّغل ويقرّب الزبون منّي، حسّ كأنّه فكتور عوّاد فوقي، وعابطني والمشط. قوم وصير إبكي، ولولا الست بيانكا كنت متت من الجوع. بيانكا قنعت مدام ماريكا أنّه وضعي النفساني صعب، وبعدين مع الوقت، بلّشت إنسى ورجعت على الشّغل».

«ليش عم تبكي»، سأل حنّا.

«ما تفكّر أنّي عم ببكي لأنّي خفت، عم ببكي على أنطوانيت الله يرحمها، مسكينة أنطوانيت راحت ببلاش».

«كلّنا لها»، قال حنّا.

«مزبوط، بس هيك لا، العمى شو هالوحش. شو بدّي خبّرك. تعوّدنا، والشّغل رجع، وهو شنقوه، وصرنا نزلغط، الله يستر على آخرتنا، أعطيني سيكارة».

أشعل حنّا سيكارة في فمه وأعطاها إيّاها.

«وين مشطك؟» سألها حنّا.

«لشو المشط»؟

«حتّى نمثّل».

«أعوذ بالله».

احتضنها حنّا بذراعه وبدأ يضحك.

أخذت سميرة مجّة من السّيكارة وأعادتها له.

«لا، مش هيك، بدّي ياها مليانة».

لفّ حنّا سيكارة حشيشة، دخّنت سميرة بنهم، ونامت.

بدأت الحكاية هكذا.

يذكر إبراهيم نصّار أنَّ الشّمس كانت تحرق المدينة. الشّمس في كلّ مكان، وإبراهيم الطّفل يلعب بالماء. الشّمس تدخل في برميل الماء الموضوع قرب شجرة اللّوز في الحديقة، وإبراهيم أمام البرميل، ويداه غارقتان في الماء، والولولة في أذنيه. كانت العمّة سارة تولول دائماً كأنّها أرملة، ولم يكن شقيقها يعقوب يضربها، كما تدّعي. فيعقوب لم يضرب زوجته ولا أخته ولا أحداً.

«أبي كان رجلاً حزيناً».

كيف يحدّد إبراهيم الحزن لنورما، كيف يروي لها أنَّ الرّجل كان يشعر بأنَّه فاشل في كلّ شيء. كان بلا طموح. الأشياء تتكرّر كأنَّها مرسومة منذ البداية. حتّى قرار الهجرة إلى كولومبيا، جاء هكذا، وفرط هكذا.

دخل يعقوب البيت، ورأى شقيقته تلطم، وقال لها إنَّه لم يمت، ثمَّ أدار ظهره، وقرّر أن لا يهاجر.

ما سرّ تلك الرّسالة التي ألغت كلّ شيء، وحوّلت حياة إبراهيم الطّفل إلى انتظار لهجرة لن تحدث؟

هل كان هناك رسالة؟ أم أنَّ الأمور اختلطت في رأس إبراهيم وفهم أنَّ هناك رسالة، بينما المسألة هي بكاء العمّة، وصراخها لأنَّها كانت لا تريد الهجرة إلى كولومبيا؟

إبراهيم لا يعرف الجواب. سأل عمّته كثيراً عن الموضوع، وكانت تجاوبه بكلمات غامضة.

«شو بعرّفني يا ابني، أنا شفت المكتوب، وبلّشت إبكي قبل ما اقراه».

«طيِّب شو قريتي»؟

«ما بعرف، كانوا عيوني مدمّعين، فهمت أنّه يعقوب مات، كان مكتوب يعقوب، لا كان مكتوب سانتياغو. نحن كنّا نسمّي أبوك سانتياغو. كلّ النّاس كان بدها تهاجر بهيديك الأيّام، وهو خبّر النّاس أنَّه مهاجر على المكسيك، بس بالحقيقة كان بدّو يروح عند قرايبنا بكولومبيا».

«فهمت، ومين يلّلي مات؟»

«بعدين بطّل، قال إنَّه خاف، وأنَّه السبانيول عم بقتّلوا العرب. هو قال هيك. أنا هيدا يلّلي فهمته، بعدين لشو نهاجر، الهجرة ما إلها معنى. أنا بعرف، أنت كمان، بكرا رح تطلعلي بهالموّال. بس أوعا، أنا لا بهاجر ولا ببيع البيت».

عندما قرّر إبراهيم نصّار الهجرة بعد مقتل عبّاس، ذهب إلى الصندوق العتيق وفتحه. لم يكن الصندوق قد فتح منذ ثلاثين سنة. كانت العمّة تطلب منه أن يضع فيه أقراص النفتلين، ولكنّه لم يفعل. مرّة واحدة حاول، فخرجت من الصندوق رائحة تشبه رائحة الجثث. رمى حبّات النفتلين في الصندوق وأقفله بسرعة دون أن ينظر إلى داخله، وبقيت تلك الرّائحة اللّعينة عالقة بأنفه.

منذ طفولته كان إبراهيم نصّار يعاني من الرّوائح. كان يشعر بأنَّ هناك رائحة كريهة عالقة على رأس أنفه. اعتقد في البداية أنَّها رائحة

البيت، ثمَّ اكتشف أنَّها رائحة الجنس، ثمَّ غيّر رأيه واقتنع أنَّها رائحته هو. لا أحد يشتمّ رائحته، قال له الطّبيب، وهو يربت على ظهره ويبتسم، «هيدا مجرّد وهم»، ورفض أن يعطيه دواء. «حطّ كولونيا وتعوّد، هيدا ما شي». عاش إبراهيم محاصراً بتلك الرّائحة الرهيبة التي هي مزيج من رائحة الموت، ورائحة التّراب، ولم يكن قادراً على إزالتها بالصّابون. كان بعد أن يتحمّم، يضع على جمسه كمّيّات من كولونيا «عماطوري ١١٤»، التي كانت دارجة في تلك الأيّام. وكان النّاس يشمّون رائحة العطور، ويتعجّبون من إصرار هذا الرّجل على التعطّر وكأنَّه امرأة.

وفي مرحلة تردّده على ميدان سباق الخيل، وصداقته مع الجوكي عبّاس، فهم من ابتسامات النّاس أنَّ عليه أن يُقلع عن عادة الإسراف في وضع الكولونيا على رأسه وجسمه، فحاول أن يخفّف منها، دون أن يستطيع التوقّف. كان يعود من ميدان السّباق فيمتلئ البيت برائحة عرق الخيل. إبراهيم يهرع إلى قنّينة الكولونيا، ويرشّ على نفسه، ويجلس على الشّرفة كي يتمتّع برائحته الجديدة التي هي مزيج من الخيل والكولونيا. لم يستطع شيء أن يزيل الرّائحة القديمة سوى رائحة عرق الخيل. رائحة الأحصنة كانت تسكره، وتعطيه شعوراً بأنَّه وُلِد من جديد.

بعد موت عبّاس عادت الرّائحة القديمة.

إبراهيم مقتنع بأنَّهم قتلوا عبّاس بشكل مقصود. فإدارة سباق الخيل لم تحتمل فارساً شريفاً من وزن هذا الفتى، فقتلوه بأن بلّعوا الحصان كمّيّة كبيرة من الحبوب المهيّجة، إلى درجة صار معها عاجزاً عن الرّكض المنتظم، فرمى فارسه ودعس عليه، وانتهت

حكـايـة سبـاق الخيـل بـالنّسبـة لإبـراهيـم، وأحـسّ أنَّه تغيّـر بشكـل لا يصدّق.

حنّا السّلمان المالح تغيّر أيضاً. حنّا لم يعد حنّا. فبالإضافة إلى الملح الذي نبت على جسمه، صار يتكلّم بهدوء ويفأفئ. أغلق دكّانه وادّعى أنَّه يعمل في تجارة الأراضي، واختفى من الحي أو كاد. حتّى نورما لم تعد تراه إلاَّ نادراً. حنّا نصح نورما بالزوّاج من أبي أشرف، رئيس ورشة بناء بنك «أنترا» في بيروت، وكادت نورما توافق لولا أنَّ أبا أشرف غيّر رأيه، وتلك حكاية أخرى.

إبراهيم لم يصدّق أنَّ حنّا يشتغل في تجارة الأراضي، شمَّ رائحة غريبة، وكان على يقين من أنَّ حنّا يعمل في تجارة مشبوهة، إلى أن رآه في السّوق العمومي أمام دكّانه الذي اشتراه من الأخ عطية، الذي سافر إلى مصر في مهمّة تبشيريّة جديدة. حنّا كان يعتقد أنَّ عطيّة ليس مسيحيّاً، فهو لم يكن يقرأ للنّاس القادمين لزيارة بيوت ماريكا إلاَّ فـي كتـب العهـد القـديـم، وكـان يـروي حكـايـة عصـا مـوسـى التـي شقّ بها البحر الأحمر، بوصفها تلخّص العلاقة بين الإنسان والله. حنّا كان يعتقد أنَّ الأخ عطيّة جاسوس إسرائيلي، وقد اقترح مرّة على مدام بيانكا أن تقوم بتبليغ البوليس عنه، لكن بيانكا رفضت بشكل قاطع. وقالت إنَّها لا تريد البوليس وهمومه في السّوق العمومي، وأنَّ فضيحـة مـن هـذا العيـار الثّقيـل سـوف تعـرّض سمعـة وجهـاء البلـد للخطر.

وانطفأت حكاية الأخ عطيّة، كما ضاعت آلاف الحكايات. إبراهيم لم يسأل حنّا ماذا يفعل في السّوق، لمحه، ورأى وجهه يدور إلى الجهة المقابلة، فتجاهله، واعتقد أنَّه اكتشف حكاية بيع الأراضي

وقد حوّلت صديقه إلى «عكروت» يشتغل قوّاداً في السّوق.

قصّة حنّا السّلمان المالح الحقيقيّة لن يعرفها إبراهيم، وسوف تضيع في ظروف أخرى، وسيعود إلى دكّانه القديم، ويكون أوّل إسكافي في بيروت يضع نظّارات طبّيّة على عينيه، ويعالج الأحذية بيديه المرتجفتين بالكهولة المبكّرة، والنّعاس الدائم.

كان ذلك عشيّة الحرب الأهليّة التي بدأت يوم ١٣ نيسان ١٩٧٥. كيف سيؤرّخ المؤرّخون لتلك العشيّة. هل بدأت الحرب عام ٧٥، أم عام ٧٣، أم ٦٨، أم عام ٦٧، أم عام ٥٨ أم عام ١٨٦٠؟

لا أدري، كلّ العشيّات تصلح أن تكون عشيّة لتلك الحرب الطّويلة التي دمّرت كلّ شيء.

عشيّة تلك الحرب. قرّر إبراهيم بن يعقوب بن إبراهيم نصّار الهجرة إلى أميركا الجنوبيّة، واختار المكسيك. كان يعلم أنّ آل نصّار موجودون في بلدين هما كولومبيا والبرازيل. منذ البداية قرّر استبعاد البرازيل لأنّه لا يحبّ اللّغة البرتغاليّة. وأمّا كولومبيا فقد ارتبطت في ذاكرته بمذبحة تعرّض لها أحد فروع العائلة. حكاية المذبحة غامضة ولا دلائل عليها. الدليل الوحيد كان تلك الرسالة التي أعلنت موت أحد أبناء عمومته وكان يحمل اسم سانتياغو أو يعقوب. فقرّر إبراهيم تلافي البلدين، والسّفر إلى المكسيك، وهو يعلم أنّ قراره مستحيل التنفيذ.

قرّر إبراهيم أن يفتح الصّندوق قبل أن يسافر، وأن يقرأ تلك الأوراق القديمة، التي أوحى له أبوه أنّها أسرار العائلة. افترض إبراهيم أنّه سيجد وصفاً للمقبرة التي دُفنت فيها النّساء. كما اعتقد أنّه سيجد تلك الرّسالة

الغامضة عن موت سانتياغو نصّار الذي سوف يصفه الرّوائي الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز وكأنَّه يصف مقتل عبد الجليل في ساحة «عين كسرين»، خلال تلك المذبحة الرّهيبة التي حدثت عام ١٨٦٠، حين بقي عبد الجليل نصّار يترنّح تحت ضربات السّيوف القصيرة المنحنية ساعة كاملة قبل أن تندلق أحشاؤه فيحاول أن يلمّها عن الأرض، ويسقط فوقها ويموت.

هل مات عبد الجليل في «عين كسرين» أم في محلّة «الأوزاعي»، أم شنق في ساحة البرج في بيروت؟

إبراهيم نصّار لا يعرف الجواب. قرّر أن يفتح الصّندوق كي يجد شجرة العائلة. ففي تلك الأيّام صارت أشجار العائلات المرسومة والمبروزة موضة في صالونات بيروت. ورغم أنَّ عائلة نصّار تملك حسَباً ونسَباً يمتدّ إلى القبائل الغسّانيّة في بلاد «حوران»، فإنَّ إبراهيم لم يكن يملك شجرة عائلته. العمّة سارة طالبته عدّة مرّات بالبحث عن الشّجرة، وإبراهيم لم يكن يكترث. لكنّه اليوم، أي عشيّة الحرب الأهليّة، قرّر البحث عن الشّجرة والهجرة إلى المكسيك. اتّخذ قراره بالهجرة إلى المكسيك، وكان يعلم أنَّ المطاف سينتهي به في كولومبيا، لأنَّ تأشيرة المكسيك كانت مستحيلة.

نورما قالت لجوليا بعد موته إنَّها كانت متأكّدة من أنَّه لن يسافر.

«فيلم، كان عمّ بفلّم عليّي، يقلّلي بدّو ياخدني معه، ويكذب. كان مسيطر عليّي بالكذب، عشرين سنة وهو يكذب، وأنا عاملة حالي مصدّقة، بس ولا مرّة صدّقته، كيف بدّي صدّق، هو يكذّب عليّي وأنا كمان كذّبت عليه، كان بس بدّي ياه يجي على الكنيسة ونتزوّج. بس واحد يتزوّج بصير الكذب بلا معنى. حتّى إذا كذب أنا

شو فرقاني معي. وكان كلّ مرّة وكأنَّه رح يوصل على الباب، ومدري شو يصير، بدال ما يفوت يزحط، بعدين يئست وفكّرت بأبو أشرف، وهيداك طلع حيوان».

نورما تتكلّم، وجوليا لا تسمع. فجوليا كانت في شبه غيبوبة، لا تفكّر إلاَّ بالأمير الصّغير الذي أنجبته ابنتها، وعليها أن تسافر كي تربّيه.

نورما صارت تخاف جوليا. وبدأت تتجنّبها، وتعتقد أنَّها صارت مسوّرة بالوهم بعد انقطاع أخبار ابنتها. لكنَّها الآن، وبعد موت إبراهيم نصّار، تجد نفسها في منزل إبراهيم وجوليا تطلب منها مالاً، وتتّهمها بقتل إبراهيم.

«ولو يا جوليا، أنا بقتل».

«كلّنا منقتل»، أجابتها جوليا.

طردت نورما جوليا من البيت الذي عاشت فيه ثلاثة أيّام قبل أن يأتي أخوال إبراهيم ويطردوها منه، وتعود إلى بيتها المستطيل في أوّل «حيّ البدوي»، حيث قيل إنَّها عاشت بين الحيطان المهدّمة، إلى أن شوهدت وهي تمشي خلف رجل أشيب يُعتقد أنَّه جاء من «السّويداء» ليأخذها إلى عائلتها.

دخل إبراهيم غرفة أبيه وفتح الصّندوق. كانت السّاعة تشير إلى الخامسة والنّصف من بعد ظهر ذلك اليوم، وكان يوم أربعاء، والعتمة بدأت تزحف فوق المدينة. دخل إبراهيم غرفة والده وأقفل الباب بالمفتاح، ثمَّ تقدّم بخطى متمهّلة من الصّندوق الأسود المطعّم بالصّدف الدّمشقي. لم يشعل الضّوء خوفاً من أن تشعر عمّته أنَّه في

الغرفة، وتعتقد أنَّه يستولي على اللّيرات الذهبيّة. اللّيرات الذهبيّة لا تهمّه الآن، فهو يعلم مكانها التّقريبي، أراد في ذلك اليوم أن يفتح الصّندوق ويقرأ ويعرف الحقيقة قبل أن يهاجر.

اقترب من الصّندوق، جلس على الأرض، أدار المفتاح المعلّق به، انفتح قفل الصّندوق، رفعه إلى الأعلى وخرجت الرّائحة. كانت رائحة صفراء، تشبه رائحة الجثث. نظر إلى داخل الصّندوق فلم ير شيئاً. ارتجف ظهره خوفاً وأراد إقفال الصّندوق والهرب من الغرفة. حاول أن يقف فلم تسعفه قدماه. كانت قدماه مربوطتين ببعضهما وملتصقتين بالأرض. نظر مرّة أخرى، ومرّة أخرى لم يرَ شيئاً. مدَّ يده إلى الدّاخل فأحسّ آلاف الحشرات تتسلّق يده اليمنى، سحب يده وتراجع إلى الخلف فسقط على ظهره. نهض وهرول باتّجاه زرّ الكهرباء، وأضاء اللّمبة. كان الغبار يغطّي كلّ شيء. السّرير مغطّى بطبقة كثيفة بيضاء، وخيوط العنكبوت تتدلّى من السّقف وتكاد تصل إلى الأرض. ورأى عيون العنكبوت. لم يسبق له، ولا لأحد في هذه المدينة أن رأى رأس حشرة العنكبوت، وقد كبر وصار كأنَّه رأس حيوان حقيقي. خاف أن يمشي ويصطدم بالعنكبوت. تراجع إلى الوراء وقرفص وتقدّم باتّجاه الصّندوق. فجأة جاءته الشّجاعة. خوفه عندما فتح الصّندوق تحوّل الآن إلى شجاعة. تقدّم مقرفصاً كأنَّه بطّة، ووصل إلى حيث الصّندوق المفتوح، وبحلق كثيراً كي يرى فلم يرَ إلاّ البقايا. كان النفتالين مسودّاً من شدّة قدمه وكأنّه حبّات من الحصى المرميّة فوق أوراق مهترئة وممزّقة. سحب الأوراق وحاول أن يقرأ فلم يقرأ شيئاً. بلى، قرأ جملة واحدة مبقّعة بالحبر النيلي، قرأ وصفاً للقبر، لكنَّه

كان وصفاً غير كامل. سحب الأوراق فرأى أرقاماً وحسابات خمَّن أنَّها حسابات الدكّان. رمى أوراق الحسابات جانباً ومدّ يده فعثر على وريقات ممزّقة. كانت على الأوراق كتابات بقلم كوبيا، لونها نيلي. حبر الكوبيا سال على الأوراق فتحوّلت الكلمات إلى بقع زرقاء داكنة لا معنى لها. كلّ الأوراق التي عثر عليها كانت مليئة ببقع زرقاء داكنة، والكلمات سالت عنها. شعر إبراهيم أنَّه وقع في فخّ وهم بناه حول نفسه وحول هذا الصّندوق. كلّ شيء كان مستحيل القراءة، حاول أن يقرأ أشكال البقع فلم يعثر على رسم يدلّه على مكان وجود المقبرة السّحريّة التي بناها أجداده. لم يجد شيئاً. أعاد الأوراق وأقفل الصّندوق بالمفتاح، وبدأ يزيل خيوط العنكبوت بيديه. الخيوط تتجمّع حوله بلونها الأغبر يزيلها فتتدوّر وتلتفّ حوله. لمح عصا والده في طرف الغرفة. حملها وبدأ يزيل الخيوط، يضرب الحيطان والسّقف، ويجمع الخيوط على الأرض ويدوس رؤوسها. لم يكن هناك رؤوس. رأى رؤوساً خاف منها في البداية، ثمَّ اكتشف أن لا رؤوس، وأنَّ سرّ الصّندوق ضاع إلى الأبد.

سمعت العمّة ضربات العصا على حيطان الغرفة المجاورة. نهضت متثاقلة لتجد باب غرفة شقيقها مفتوحاً، والغرفة مضاءة. وقفت أمام الباب ورأت إبراهيم حاملاً عصا والده وخيوط العنكبوت تلتفّ حوله.

«شو عم تعمل؟»

«عمَّ فتّش».

«كان بدّك تسرق».

«لا، كنت عم فتّش على السرّ»

«أيّ سرّ يا ابني، هون ما في سرّ».

«شو في لكن؟»

«شويّة عنكبوت، وهالصندوق. شو عملت بالصّندوق؟»

«فتحته»

«وشو لقيت؟»

«ما لقيت شي».

«وليرات الذّهب؟»

«ما فتّشت عليها، كنت عم فتّش على الأوراق بالصّندوق».

«اللّيرات تحت البلاطة، أوعا تكون كسَّرت البلاطة؟»

«تعي شوفي».

«ما بدّي شوف، ليش بعد عندي عيون لتشوف. الله يهديك يا ابني، بيّك الله يرحمه خبّا كل شي بالصّندوق، وهيئتك ما عرفت تفتّش، يلّله يلّله، لبرّا، شي نهار أنا بفتّش، ومنلاقي يلّلي بدّك ياه».

روى لحنّا أنَّ رغبته في السّفر تبخّرت عندما فتح الصّندوق ورأى الأشياء في داخله على شكل أوراق مبقّعة بحبر الكوبيا السّائل.

حنّا لم يصدِّقه، ولم يصدّق حكاية الصّندوق كلّها. قال حنّا إنَّ إبراهيم يكذب ويعيد نسخ حكايات قرأها في كتاب، مدّعياً أنّها حكايته.

كما شكّك حنّا في حكايات المذابح التي رواها إبراهيم، وقال له إنَّ رأسه مليء بالأوهام، وأنَّ الصّندوق ليس موجوداً، وأنَّ الحكاية بأسرها هي من اختراع سارة التي فبركت قصّة الرّسالة من لا شيء.

«كلّ القصص يلّلي خبّرتني ياها تفنيص، مسكينة نورما، ليش عملت فيها هيك، وبعدين ما تزوّجتها».

«ما بعرف، كنت خاف من الموت».

«أنا أردت الموت ولم أمت، أنتم تتحدّثون عن الموت كي تهربوا منه، تعتقدون أنَّ كلامكم سوف يبعد الموت، لكن لا. الموت كان في البدء. هكذا يبدأ إنجيل يوحنّا «في البدء كان الكلمة»، هذا يعني أنَّ البدء هو الموت. الكلمة هو موت الكلمة. أنتم تهربون من الموت إلى الموت. تفو على الإنسان».

هذا الحوار لم يجر بين إبراهيم وحنّا. حنّا كان يتخيّله وهو يرى إبراهيم مرعوباً من شبح الحرب الأهليّة التي بلغت الاستعدادات لها الذروة.

في تلك اللّيلة التي دخل فيها إبراهيم غرفة والده كي يفتح الصّندوق ويجد اللاّشيء، في تلك اللّيلة كان الشّارع مسرحاً لهرولة المسلّحين بلباسهم الكاكي، ووجوههم السّوداء، وهم يتدرّبون في شوارع المدينة على الحرب. يركضون مع بداية الغروب، وظلالهم تملأ حيطان المدينة، وصراخهم يأتي كأنّه من مغارة عتيقة.

في تلك اللّيلة دخل إبراهيم نصّار غرفة والده، فتح الصّندوق ولم يعثر على شيء. أقفل الصّندوق وقرّر أن يرميه، ولكنّه لم يفعل. تركه في مكانه، أغلق باب الغرفة وراءه وذهب إلى حنّا وروى له. كان يعلم أنَّ حنّا لن يصدِّق، ولكنَّه أحسّ بحاجة إلى أن يروي لأحد، حتّى ولو كان هذا الأحد غير مستعدّ للتصديق.

جلس الصّديقان القديمان أمام دكّان حنّا بعد أن أعاد الدّهر وصل ما انقطع، وحكى إبراهيم واستمع إليه حنّا وهو يحكّ ظهره. وهي عادة عاشت معه طوال حياته. حنّا يحكّ والملح لا يتساقط، وإبراهيم يروي أسرار الصّندوق.

قال إبراهيم إنّه رأى رسائل باللّغة الإسبانيّة ولكنّه لم يستطع أن يقرأها. قال إنَّه متأكّد من أنَّ الحرف ليس عربيّاً، من طريقة سيلان حبر الكوبيا على الورق.

«حرام ما نقدر نقرا، الأشياء مكتوبة، وأنا ما قدرت إقراها».

«ليش أنت ما بتعرف اسبانيولي»، سأل حنّا.

«القصّة مش قصّة إذا بعرف اسبانيولي، لا أنا ما بعرف اسبانيولي، بس الكلمات كانت ممحيّة، كلّ شي كان ممحي. يا لطيف كيف ماتت القصّة».

«قصّة مين؟» سأل حنّا.

«قصّة جدّي»، جاوب إبراهيم.

«وشو بدّك بجدّك؟»

«ما بعرف».

«الله يساعدك، شو إنت ما عندك عقل. كلّ القصص بتموت، تخيّل حتّى قصّة الحبس صارت عندي كأنَّها ما صارت، ما بعرف ليش وقت بتذكّر، بتذكّر أنّي كنت قطّع الجثث وأرميها، لا قبل، كنت عبّيها بكياس الفحم وبعدين أدفنها».

«أنت؟».

«لا، يعني فكتور عوّاد، أنا بتذكّر أنَّه كان يقطّع الجثث قبل ما يعبّيها بأكياس الفحم، مع إنَّه ما قطّعها، أنا بعرف أنَّه ما قطّعها، بس ما بعرف ليش الصّورة ما بتركب براسي إلاّ إذا كانت الجثث مقطّعة. حتّى حكاية الملح والعطش، أنا هلّق كلّهم بيعيّطولي حنّا المالح، بتعرف كأنَّه مش أنا. يعني هيدا يلّلي أجبروه ياكل كيلو ملح كأنّه مش

أنا. بشوف صورته قدّامي، بشوف قدّيش تعذّب، بس ما بحسّ بشي. بحلم حبل المشنقة، والريّس سامي. بس كلّه كأنَّه مش أنا. القصص متل النّاس بتموت. والواحد لازم يبكي عالنّاس مش عالقصص، لأنّه يلّلي بروح ما بيرجع، بس القصص بترجع. ما بعرف الريّس كيف راح، حداً بيعرف؟ أنا ما بعرف. بس كلّ يوم والتاني منقرا بالجرايد عنه، وبقولوا ارح يرجع. بس أنا قلبي حسّ، وقت اختفى، أنَّه خلص».

حاول إبراهيم أن يشرح لصديقه القديم أنَّه أراد معرفة قصص العائلة. قصص النّاس الذين هاجروا في القرن التاسع عشر إلى أميركا الجنوبيّة، وعاشوا مع البعوض وفي المستنقعات والخوف، وذاقوا الذلّ الذي يخترق العظام، من أجل أن يعمّروا البيوت ذات السّقوف القرميديّة الحمراء في قرى جبل لبنان، وكانوا غرباء.

«كلّنا غرباء»، قال حنّا. «هون أو هونيك، شو الفرق، الإنسان دايماً غريب. حتّى مع مرتي بحسّ إنّي غريب. الله يخلّيك وقّف هالقصص. صحيح بدّك تسافر وتاخد نورما معك»؟

هزّ إبراهيم رأسه وكأنَّه لا يعرف الجواب، ونهض مغادراً بعد أن نظر إلى ساعته «تأخّرت، هلّق عمّتي بينشغل بالها عليّي». ومضى.

في ذلك الزّمان التقى الصّديقان القديمان، ودامت صداقتهما الجديدة عشر سنوات، وانطوت كما تنطوي الأشياء، بالموت الذي يأتي لينهي العلاقات ويفرّق الأحباب.

جاء اللّقاء بعد فراق طويل، فالصدف شاءت أن يموت عبّاس بعد سنة من اختفاء سامي الخوري.

بعد موت عبّاس تحت أقدام الفرس عاد إبراهيم إلى عاداته القديمة، ليكتشف أنَّ الأشياء لم تعد كما كانت. العمّة سارة أصيبت بالطّرش، ولم تعد تتوقّف عن التكلّم مع نفسها بصوت مرتفع، وأدخلت عادة جديدة إلى البيت، هي صنع الخبز داخل المنزل ورفض شرائه من الفرن بحجّة أنَّ طحين الأفران مغشوش. وصار إبراهيم يرجع من عمله ليكتشف البيت مليئاً بالطّحين. واكتشف أنَّ حنّا عاد إلى الحيّ وفتح دكّانه. كان قد سمع من أبي أشرف أنَّ حنّا يشتغل في تجارة الحشيش، لكنّه لم يهتمّ، فالودّ بين الصديقين انقطع أمام حبل المشنقة. إبراهيم ذهب إلى ساحة قصر العدل ليتفرّج على حنّا، في اللّحظة نفسها التي عاد فيها حنّا إلى بيته بريئاً. وقد عبّر سكّان «حيّ الفرنيني» عن خيبتهم في عدم التفرّج على حفلة الشّنق، بإطلاق العيارات النّاريّة ابتهاجاً بخروج حنّا من السّجن.

واختفى حنّا من الحيّ، لم يعد النّاس يلمحونه إلاَّ خارجاً من بيته، لابساً ثياباً سوداء، ومهرولاً نحو سيّارته «البيجو» العتيقة.

بعد كلّ ما جرى عاد الصديقان إلى اللّقاء من جديد. إبراهيم أصبح يقضي أغلب وقته في دكّانه، ورجع حنّا إلى عمله القديم بجسده المكتهل وعينيه المريضتين.

فجأة وجد حنّا نفسه بلا عمل. رفض أن يخون المعلّم ويشتغل مع أعدائه، وكان عاجزاً عن العمل وحده. لم يكن أمامه سوى خيار واحد، وهو أن يعود إلى حرفته القديمة، بعد أن بدّد ثروات طائلة. كان يعتقد أنَّ الحياة ستدوم معه ومع معلّمه إلى الأبد. لم يخطر بباله احتمال أن يختفي سامي الخوري أو يموت. كان يشعر مع هذا الرّجل القصير النّحيل أنّه أمام إلّه. كان المهرّب مثل إلّه صغير مع أتباعه وأنصاره. يصرف بسخاء لا مثيل له، يمزج الخطر بالمزاح ولا يخاف. كانوا كأنَّهم في سهرة. الخطر يثير فيهم الشّهوة إلى الطّعام والخمر والنّساء والعمل. كان سامي يهرّب كي يتمتَّع بلذّة التّهريب، والمال يأتي ويروح. ولم يكن يعرف امرأة لا ثمن لها، يسخو مع النّساء ويسخو بهنّ، إلى أن تعرّف على الفرنسيّة التي تزوّجها. يومها قال رجاله إنَّه فرط، رأوه مرتجفاً بالغيرة والشّوق. حاول أن يغريها بالمال والبيوت والمجوهرات، لكنّها كانت لا تبدي نحوه غير الاحتقار. معها تغيّر المعلّم، اكتشف أنَّ المال لا يكفي، وأنَّ المرأة كائن آخر. ذهب إلى ملهى «الكيت كات» حيث كانت تعمل راقصة، وطلبها على طاولته. قال له «البارون» إنَّها مشغولة. نهض سامي وكان مستعدّاً لارتكاب جريمة، ذهب إلى غرفتها فرآها مع زميلة لها، جثا على الأرض وطلبها للزّواج. كان متأكّداً أنَّها سترفض، ولكنّها قبلت. تزوّجها وأسكنها في «نويي» في باريس حيث أقامت مع ابنتها في انتظاره.

حنّا الآن مع صديقه إبراهيم، يتذكّر الأشياء بشكل غامض، وينسبها لنفسه. حتّى حادثة الملفوف ادّعى أنّه بطلها، مع أنّها كانت الشيفرة التي دخل بها عالم المهرِّبين، وقد حصلت قبل إعدامه المفترض بثلاث سنوات. واستطاع حنّا أن يقلّد المعلّم في كلّ شيء، صار يمشي مثله، ويحني عنقه مثله، ويفأفئ كأنّه ولد مع عاهة التلعثم، ولكنّه عجز عن أن يصير نحيلاً. تعلّم حنّا كلّ شيء من معلّمه، وصار باذخاً مثله. لكن بيته العائلي بقي بعيداً عن هذه الأجواء. لا شيء تغيّر هناك، فحنّا كان يملك بيتاً آخر، وثياباً أخرى، وامرأة أخرى وحياة أخرى. استأجر شقّة في «عين المريسة» وهناك عاش حياته الثانية. المرأة الأخرى كانت تتبدّل بشكل دائم، ولكنّها كانت أبداً نحيفة وجميلة وشقراء الشّعر. والحياة هناك غير الحياة هنا. فجراً يعود حنّا إلى حيّ «الفرنيني»، يعود بثيابه القديمة ومشيته المتردّدة. كان الوحيد داخل مجموعة الريّس الذي لم يتغيّر. مرّة اتّهمه المعلّم أنّه «يدكّ المال في القصبة». حنّا لم يكن يدكّ المال، كان يبعثره كالمجنون. يقف خلف طاولة «البكارا»، في «كازينو لبنان»، يلعب ويلعب، حتّى يضطرّ إلى رهن ساعته. وعندما اختفى المعلّم اختفى كلّ شيء. عاد حنّا إلى بيته ودكّانه، عاد وفي قلبه غصّة غامضة بأنَّ سرّ المعلّم افترس حياته. قال لهم حنّا إنّه لن يعود. جاء المحامي منير علويّة وأخبره أنَّ سامي اختفى مع سائقه ميشال المدوّر. قال حنّا «خلص، انتهينا»، ولم يشارك في عمليّة البحث. ذهب إلى شقّته في «عين المريسة» وقال للأرتيست الفرنسيّة «مادلين» إنّه خلص. قال لها إنّها تستطيع أن تحتفظ بالشقّة إذا أرادت، لكن خلص، كلّ شيء انتهى، وعليها أن تدبّر حالها. لم يأخذ شيئاً من ثيابه وأغراضه. حتّى ساعاته تركها. السّاعات كانت

غرامه، فلقد اشترى خلال الأعوام الخمسة عشر التي عمل فيها مع سامي الخوري حوالي ستّين ساعة سويسريّة من مختلف الأنواع، وكان يضعها في جاروين مقفلين داخل خزانته. وبين وقت وآخر يفتح الجاروين ويتأمّلها، يفرشها على السّرير ويلمسها بيديه، يلبس بعضها ويشلحها، ثمَّ يعيدها إلى الجاروين. حتّى السّاعات التي قال لمادلين إنّه يحتفظ بها في الجاروين كي لا يمضي الوقت، بل «ينام تحت نظري»، تخلّى عنها. اعتقدت الفرنسيّة أنَّ الرّجل يعاني من لوثة جنون، وتأكّدت من ذلك بسبب أنينه المرتفع حين كان يغفو إلى جانبها، قبل أن ينهض مع خيوط الفجر الأولى ليمضي إلى بيته. حتّى السّاعات تركها، لحقت به مادلين وقالت السّاعات. قال إنَّها لك، لم أعد بحاجة إلى الوقت، الوقت خرج من الجارور وسال، وأشار إلى رأسه المليء بالشّعر الأبيض، حكّ ظهره على الباب، ومضى.

في حزيران ١٩٦٣، ركب سامي الخوري سيّارته «البويك» الحمراء، موديل ٦٣، مع محاميه منير علويّة، وسائقه ميشال المدوّر، وغادروا إلى عمّان، ثمَّ عادوا إلى دمشق حيث أقاموا في شقّة مفروشة في حيّ «أبو رمّانة». ومساء ١٤ أيلول ١٩٦٣ ترك سامي شقّته مع سائقه ميشال المدوّر ولم يعودا. صديقه كابي المطران، الملقّب بالأبرص، قال للمحامي إنَّ الريّس لم يُقتل أو يُخطف. بل اختفى من تلقاء نفسه. «أنا سألته قبل عشرين يوم من سفره لعمّان، وكنّا عم نسكر بأوتيل «مسابكي»، بشتورة، قلتلّه كيف الزهر معك يا ريّس، قلّي تمام، رايح على عمّان وهونيك رح افتح ستيريو وصير ملك».

حنّا لم يصدّق. كان مقتنعاً بأنَّ الريّس اختفى في الأردن ولن يعود. هناك وسط قبائل المهرِّبين التي كانت تسيطر على الطّرق السرّيّة بين الجزيرة العربيّة والأردن وسوريا والعراق. هناك اختفى سامي الخوري ولن يعود. هل قُتل على الفور أم مايزال حيّاً؟ لا أحد يعلم.

حنّا ذهب إلى بيته وعاد إلى دكّانه يرتجف فوق الأحذية التي يصلحها، ويضع المسامير الصّغيرة في فمه ويخاف أن يبتلعها، ولكنّه بقي بينه وبين نفسه ينتظر عودة الريّس في أيّة لحظة. الريّس لم يأتِ، وبقيت المسامير في فمّ حنّا تمنعه من الكلام. وعندما كان إبراهيم نصّار يخبره عن مشاريع الهجرة إلى المكسيك أو كولومبيا، كان حنّا يسأل، ولماذا ليس فنزويلا، ويتساءل هل صحيح أنَّ الريّس ذهب إلى فنزويلا، وبدأ هناك حياة جديدة. ترك كلّ شيء هنا ولم يأخذ معه أحداً غير سائقه وكاتم أسراره، ومضى إلى بداية جديدة. وهو يعيش الآن تحت اسم آخر، ويتكلّم لغة أخرى، ويفأفئ؟ أم أنَّه قتل في الصّحراء؟ أم هو في لبنان بثياب جديدة وعمل جديد؟ أم غادر إلى طنجة ليشتغل هناك؟ أم مات؟

«لشو عم بتفتّش بالصّندوق، إذا عرفنا أو ما عرفنا شو الفرق، إذا سامي بعده طيّب أو مات شو الفرق. ما هو بالنّسبة إلنا مات. أحسن يكون مات، الموت بيمحي الأشيا. الكارثة الوحيدة يلّلي ممكن نقبلها وما نجنّ هي الموت».

وروى عن تلك المرأة.

كان إبراهيم لا يصدّق أنَّ هناك شيئاً حقيقيّاً في هذا النّوع من

العـوطف التي يراها في الأفلام السينمائيّة. فهو لم يشعر بذلك مع النّساء الثلاث اللّواتي مررن في حياته.

«انسيهـا قلّلي الـريّس، ابلعهـا وخلّليهـا جـوّا. متـل قبعـة ضـرس، قدّيش بوجّع الضّرس، بس بعدين بصير جورة مستريحة كأنًّها ما كانت. بلعها قلّلي الريّس، وأنا كنت متل كأنّي عم ببلع قزاز. ومين هي، هي ما شي، يعني شو بدّي قلّك. ميّة واحدة أحسـن منهـا. وصرت اتنقّل من واحدة لواحدة وشمّ ريحتها. كيف بدّي خبّرك شو صار فيّي لمّن فلّت. أنا بعرف ليش تركتني، تركتني لأنًّها حبّت واحد تاني. قالت بدّها السترة وأنَّه قال نحن ما منناسب بعض. كذّابة، قحبة وبدها السترة قال، راحت مع بيّاع الجوخ، لأنًّها حبّته. يمكن وعدها بالزّواج، بس مش هون الموضوع، الموضوع هو الحبّ، شفتهـا عـم بتحبّه وأنـا قـاعـد حـدّهـا، صـاروا عيـونهـا يبـرقـوا وتتغنّـج وتحكي بالمصري، وهي شقفة قلعوطة من بيروت. وصرت كأنّي عم بـاكـل قزاز. بتعـرف شعـو يعنـي الـواحـد يـاكـل قنينـة قـزاز. أكيـد مـا بتعـرف، صـرت آكـل قـزاز وحـسّ أنّـه الـدم عـم يشـلـي مـن جـوّا، والـوجـع. آخ شـو تـوجّعـت. الـريّـس سـامـي قـال نحـن مـا منقتـل، بمصلحتنا ما في قتل وما في غرام. أنا كنت قول بس لو بتموت، لو بقتلها كانت الأشيا بترتاح جوّاتي. بتعرف شو يعني الواحد يغار، ضلّيت ٦ أشهر أسمعها عم تقول آخ، وإجي لأختنق».

«وقتلتها»، سأل إبراهيم.

«طبعاً لا، بعدين مشي الحال، متل ما قال الريّس، قبعة ضرس وبعدين اللّحم بسكّر على بعضه. سكّر اللّحم، وما عاد فيّي حبّ. تعلّمت، صرت أعمل فيهم متل ما عملت فيّي، صرت ازحط متل

السّمكة، واتركهم ينطروا وأمشي. مسكينة «مادلين» الفرنساويّة مدري شو بكون صار فيها هلّق. وقفت وكمشت السّاعات متل كأنَّها عابطة ولد صغير، وشفت دموعها، وأنا يا زلمي كأنَّه ما شي، ما حسّيت بشي، ما كان بدّي إلاَّ أمشي، طلع عندي متل شي درع ضخم على صدري، وفهمت أنَّه ما بقى بقدر كفّي، بتشرشح، مشيت وتركتلّها السّاعات. بتعرف شو يعني ستّين ساعة سويسريّة، والله ما بعرف، بس هيك حسّيت أنّه صار لازم اتركها هونيك حتّى اقدر ارجع».

«هلّق كلّنا رجعنا»، قال إبراهيم، ولم يجرؤ على أن يروي حكايته مع عبّاس. ماذا يروي؟ هل يروي تلك الرّغبة باقتناء الأحصنة وغسلها من العرق وشمّ رائحتها. هل يخبر أنّه لم يكن يجرؤ على ركوب الأحصنة. ماذا يروي؟ إبراهيم نصّار لا يعرف أن يروي ذلك الشّعور بالرّغبة الغامضة نحو الفتى. لكن، كما قال حنّا، جاء الموت وأطفأ الأشياء ومحاها، وأبعد عنه تجربة أكل الزّجاج.

كيف مات إبراهيم؟

حنّا كان أوّل الدّاخلين إلى تلك الغرفة، رآه نصف عارٍ ومنتفخاً وأزرق. هل اختنق أم أصيب بسكتة قلبيّة؟ أهي نورما؟ هل محت نورما الزّجاجات التي أكلتها طوال حياتها، وقتلت الرّجل؟

الهمّ الذي ركب حنّا هو التخلّص من الجثّة بسرعة عبر دفنها. لم يسأل نورما شيئاً، لفّ إبراهيم بشرشف أبيض من رأسه إلى قدميه وذهب يبحث عن مفتاح المقبرة. لم يشعر برغبة في البكاء. شعر باحتقار لإبراهيم حين رآه قبل ستّة أيّام يمشي كالأبله خلف نعش عمّته الكهلة ويبكي. لم يقف حنّا أمام الجثّة ويتأمّلها، اقترب فتأكّد من الموت، وذهب ليحضّر إجراءات الدّفن. شعر حنّا بضرورة العودة إلى البيت من أجل نقع قدميه المتورّمتين بالماء السّاخن، والدخول في رائحة الذكريات البعيدة الّتي تجتاحه عندما ينهي سعلته الصباحيّة الطويلة، ويصبح حائراً، هل هو في حبس الرّمل، أم في بيت «عين المريسة» مع «مادلين السّاعات»، كما صار يسمّيها في ذاكرته.

لماذا فعلت نورما ذلك؟

لماذا خرجت من الخزانة نصف عارية، وبدأت تندب؟

ولماذا مشت كالتائهة في شوارع بيروت وكأنّها تستعطي، وقالت إنّ الرّجل فضّ بكارتها ومات قبل أن يتزوّجها.

لماذا لا تذهب وتعيش في بيت نبيهة وتنستر.

نورما قالت إنَّها لم تغادر بيروت إلى «السويداء» من أجل حماية البيت ومنع المسلّحين من احتلاله. ما سرّ هذا البيت المستطيل الذي تخرّب بعد إصابته بقذيفة؟

سكنت نورما منزل إبراهيم نصّار مدّعية أنَّها زوجته. ولم تستقبل أحداً في هذا البيت غير جوليا التي أخبرتها عن الأمير الصّغير الذي يعيش في مكانٍ ما من الجزيرة العربيّة.

ثمَّ جاء السيّد نسيم الجاهل وطرد نورما من البيت. يومها سمع النّاس صراخاً. كانت نورما تصرخ بالرّجال الذين يدفعونها خارجاً، تبكي وتحاول أن تقول كلاماً فتندفن كلماتها تحت الصّراخ.

طردوها من البيت فوقفت على الطّريق. يومها التقت بحنّا العائد إلى بيته، بعد أن أغلق دكّانه.

«شو عم تعملي هون، يلّله ارجعي على البيت».

«أنا بدّي خبّر كلّ النّاس، هو فضحني وتركني».

وصارت تحكي، وحنّا يريد أن يذهب. يستمع إليها بنصف أذن ويستعدّ للمشي فتقترب منه وتضع يدها على كتفه.

«أنت بتعرفه؟»

«مين هو؟»

«إبراهيم، إبراهيم نصّار، زوجي».

«شو بكِ يا نورما، شو بكم يا الله، العمى، ولي أنا حنّا، نسيتِ حنّا».

«هو وعدني وفضحني».

«روحي الله يستر عليكِ ويسترنا».

لماذا تقف هذه المرأة هكذا؟

تركها حنّا وعاد إلى البيت، وبقيت نورما على الرّصيف تنتظر من تروي له الحكاية عن شرفها الضّائع.

لم يسألها أحد كيف مات إبراهيم نصّار، هل قتلته؟ أم مات وهو يضاجعها؟ أم اختنق؟

في تلك الأيّام لم يكن أحد يسأل عن سبب الموت. كان النّاس يموتون وهم يهربون من الموت. وكانوا يبحثون عن وسائل الهجرة من لبنان. وحنّا يستمع إلى ابنه الذي يعدّ أوراق هجرته إلى كندا، ويشجّعه بانحناءة من رأسه، ولا يقول شيئاً. الزّوجة تبكي وتطلب من ابنها أن يبقى، ثمَّ تبكي من جديد وتطلب منه أن يسافر خوفاً عليه من موت بيروت.

ربّما كانت الزّوجة تريد أن تهاجر مع ابنها؟

قال لها حنّا إنّه لا يمانع. «روحي إذا بدّك أنا ما عندي مانع».

«ليش هو بياخدني معه؟» جاوبت الزّوجة بعفويّة، وانخرطت في البكاء. وحنّا ينظر إلى هذا العمر الذي يمضي وكأنّه ما كان.

«متل الحلم»، قال لزوجته. «والحلم بيخلص بالهجرة، خلّليه يهاجر، إبراهيم، الله يرحمه، ضلّ كلّ عمره يقول أنّه بدّو يهاجر، وبعدين مات متل الكلب، وما لقينا قبر تندفنه، يا لطيف شو كان كذّاب، لا في دهب ولا في أسرار، كلّه كذب، عمل كذبة وصدّقها، بس أنا قلتلّه يتزوّج نورما، مش كان أحسن من هالشرشحة».

ذهبت نورما إلى بيتها واختفت.

قيل إنَّ رجالاً جاؤوا وأخذوها إلى «حوران». قيل إنَّها ذهبت مع العمّال السوريّين حين قام المسلّحون بخطفهم وقتلهم، وأنَّها أصرّت على الدّفاع عن أبي أشرف، وألقت خطاباً طويلاً انتهى عندما أطلقوا عليها النّار.

حنّا السّلمان المالح البارودي وحده في دكّانه، ينظر إلى الأحذية التي أصلحها، ولم يأتِ أصحابها لأخذها لأنَّهم يخافون صوت الرّصاص وإيقاع القذائف الذي يهزّ المدينة.

حنّا وحده. غريب في مدينة غريبة يستمع إلى الذكريات، ويئنّ من الأوجاع. لو يأتي الملاك ويدكّ له أذنيه كي يصاب بالطّرش، لو يأتي الريّس، لو تأتي «مادلين السّاعات»، لو تأتي امرأة الزّجاج وتبكي بين ذراعيه، وتعتذر له باللّهجة المصريّة، لو...

الطّرقات فارغة. ليل وبيروت ووقع أقدام الحرب. وبيت منعزل لا نسمع منه سوى زغاريد جوليا وهي تحتفل بزواج حفيدها الصّغير من أميرة صغيرة، من أجل أن ينجب سلالة من الملوك.



بدأت الحكاية هكذا.

في ذلك الزمان جاءت نورما إلى حبس الرمل. كانت في الثالثة والعشرين، حنطيّة اللون، كبيرة النهدين، في عينيها ما يشبه دموعاً تكاد تسقط. تنتعل سكربينة سوداء بكعب عالٍ كي تبدو أطول من قامتها قليلاً، تلبس فستاناً أصفرَ، وتحمل جزداناً أسود.

في ذلك الزمان، جاءت نورما إلى الحبس، وطلبت مقابلة حنّا السلمان. حصل هذا، بعد صدور حكم الإعدام بأسبوع، وكانت نورما تعلم أن لا أحد يأتي لزيارة حنّا. كانت تريد أن تفهم لماذا ارتكب حنّا هذه الجرائم. كانت نورما هكذا، تحبّ أن تفهم الأشياء...



ولد الكاتب اللبناني الياس خوري في بيروت عام ١٩٤٨. يعمل حاليّاً رئيساً لتحرير "الملحق" الأدبيّ لجريدة "التهار" في بيروت.

درّس في جامعتي كولومبيا ونيويورك في
الولايات المتحدة، وفي الجامعتين اللب
والأميركية في بيروت.

تُرجمَت رواياته إلى الفرنسيّة والإنكل
والايطالية والسويدية والنروجية
والهولندية.

